ديانات الأسرار
والعبادات الغامضة
في التاريخ
تأليف
الدكتور حسني الشيخ

ديانات الأسرار
والعبادات الغامضة
في التاريخ

دكتور حسين الشيخ

ديانات الأسرار والعبادات الغامضة في التاريخ



دار العلوم العربية
بيروت - لبنان



دار العلوم العربية

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ ١٩٩٦م

الناشر
دار العلوم العربية
للطباعة والنشر
مقابل جامعة بيروت العربية
بناية عنان
هاتف : ٣٠٧١٧٣
ص.ب : ٩٥٣٥ - ١١
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً، فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

سورة آل عمران : آية ٨٥

إهداء

إلى روح أبي

لعلّي أكون قد حققت بعضاً

مما تمناه لي

حسين الشيخ

الفصل الأول
الأسطورة والفكر الديني
في العالم القديم

كانت الأسطورة هي القالب الرمزي الذي تجمعت بداخله أفكار البشر وأحلامهم في الفترة السابقة على ظهور المعرفة بمعناها الواسع. أو بعبارة أخرى الفلسفة والعلم. وإدراكنا للأسطورة يحتم علينا أن نتمرس دائماً بالنظرة الاستبطانية للأشياء. تلك هي النظرة التي تكشف لنا صور هذه الأشياء وتعيننا على إدراك الوجود إدراكا تأملياً ميتافيزيقياً. ولهذا ترى الفلسفة أن الأسطورة بكل ما تتضمه من صور ورموز لابد أن تحمل مضموناً فلسفياً عميقاً، وإذا أخفت الأسطورة هذا المعنى فمهمة الفلسفة أن تقوم بعملية التفسير لهذه الصور والرموز.

ولا شك أن الأسطورة هي عمل إبداعي إنساني محض، وأن إبداعها قد تم بطريقة لاشعورية، أي لم يكن العقل الذي أبدع الأسطورة واعياً بما يقوم به من خلق خيالي لتلك الأسطورة، ورغم هذا فقد نالت الأسطورة قدراً كبيراً من اهتمام الباحثين، فلدينا «فرويد» الذي يرى أن كل صور الأسطورة ما هي إلا أقنعة لشيء واحد هو «الجنس» وبالإضافة إلى فرويد فلدينا فريزر ولانج وفارنل وغيرهم كثيرين ممن لا يتسع المجال هنا لمناقشة آراءهم باستفاضة[1].

والحق أنه لا بد وأن تعامل الأسطورة على أنها مادة إنسانية لا تخضع لمناهج

---

(١) سنعرض فيما بعد العديد من التفسيرات التي أحاطت بدراسة الأساطير وخاصة ما يتعلق منها بالأساطير اليونانية والرومانية.

التقنين والتجريب، ذلك لأنه يوجد خلاف واضح بين المادة الأسطورة والمادة الفيزيائية، فالعالم الذي يستنبط القوانين من الواقع إنما يقوم بعملية إختزال لهذا الواقع، أما الخلق الأسطوري فهو يقوم على أساس تكثيف لهذا الواقع، فالأسطورة لا تقبل التصنيف أو التعميم أو التبسيط لأنها لا تبحث عن خصائص الأشياء أو تحاول وصف ظاهرة طبيعية، وبالتالي فكل ما تعنى به الأسطورة هو محاولة تقديم رؤية استنباطية للأشياء أو رؤية حدسية لصور هذه الأشياء، ومن هنا يختلف الفكر العلمي عن الفكر الأسطوري، فالأول يقوم بوصف ظواهر الطبيعة والمسببات التي تكمن وراء هذه الظواهر وصفاً موضوعياً بحتاً يمكن إخضاعه لمناهج التقنين والتجريب، أما الفكر الأسطوري فهو يصف الطبيعة بأحاسيس الإنسان وتخيلاته وتصوراته[1].

وعلى الرغم من النظرة العلمية الموضوعية التي تعالج بها ظواهر الطبيعية في وقتنا هذا فما زالت الصور الأسطورية تستهوينا لأننا نرى فيها الإنسان والطبيعة كلاً واحداً، فهنا يمتزج عالم الإنسان بعالم الطبيعة، ويتبلور هذا الامتزاج في ظواهر عديدة، فخسوف القمر كان يعني حرب عسكرية وظهور مذنب كان نذيراً بالوباء وحركات الكواكب كانت دليلاً لاختيار الأوقات السعيدة واجتناب أوقات النحس وهكذا.

إلا أن منطق الأسطورة ومنطق العلم كثيراً ما يلتقيان فيؤديان غرضاً واحداً هو جعل الكون مفهوماً، وهذا ما يبدو واضحاً حين تتعامل الأسطورة مع العناصر المادية المعروفة مثل الهواء والتراب والنار والماء التي يتألف منها الكون فتصور العلاقات فيما بين هذه العناصر تصويراً إنسانياً قد لا يخلو من الطرافة.

وفي عالم الأسطورة اعتقاد راسخ بوحدة الحياة، فالطبيعة تصبح مجتمع الحياة والإنسان جزء من هذا المجتمع.. وهذا الشعور بوحدة الحياة التي لا تتحطم هو

---

(١) سعد عبد العزيز: الأسطورة والدراما. ص ٧ ـ ١١.

شعور غاية في القوة حتى أنه يتحدى حقيقة الموت وينكرها، فالموت في الفكر الأسطوري لا يمثل ظاهرة طبيعية تخضع لقوانين عامة. لأن الفكر الأسطوري أبى أن يسلم بفناء الإنسان، وهو ينكر ظاهرة الموت ولهذا كان مثل هذا الفكر أقوى وأشد تأكيداً للحياة[١].

وكما كانت الأسطورة محاولة من الإنسان لتطويع الطبيعة وظواهرها المحيطة به، كان الدين ـ وهو التطور الطبيعي للسحر وما صاحبه من طقوس ـ محاولة من الإنسان البدائي لتطويع الطبيعة وتسخيرها لخدمته وتفسير ظواهرها تفسيراً وهمياً، وقد بدأ السحر مع الإنسان في العصور الحجرية القديمة بشكل غير واع، ثم تطور إلى الشكل الواع على أساس خلق رموز ونماذج للطبيعة بحيث تتحول الطقوس التي تجرى عليها إلى أشياء تحدث في العالم الواقعي، وكان الهدف الأول للإنسان هو إغراء الطبيعة بمساعدته في مشاكله التي يعجز عن مواجهتها وبهذا تتأكد فرضيتنا الأولى من أن السحر قد نشأ كمحاولة من الإنسان لسد الثغرات الناجمة عن فقر التكنيك ومحدوديته.

وكانت هذه البدايات هى أولى الخطوات نحو ظهور (الطوطم) وهو الرمز الذي يمنح الإنسان القوة، وقد أخذ الطوطم شكل الحيوان أو النبات، وتدريجياً أصبح لكل عشيرة أو قبيلة طوطمها الخاص والذي تحول تدريجياً أيضاً إلى إله تعبده هذه القبيلة أو العشيرة، وأقيمت له الطقوس وقواعد العبادة التي هي في الحقيقة صورة أخرى للسحر البدائي، وصحب هذه الطقوس أناشيد تحاول تفسير أصل العالم وتطوره، وهكذا ولدت الأسطورة التي هي في الحقيقة شكل من أشكال العلم

---

(١) والمثال الذي يكاد يتطابق مع هذا الرأي هو موقف المصريين القدماء من الموت وفكرتهم عن العودة للحياة في عالم آخر. وترجمتهم لهذا الموقف بشكل عملي يظهر في طريقة بناء قبورهم وظهور فكرة التحنيط ودفن بعض المأكولات مع الميت مع رموز لكل ما كان يحيط به أثناء حياته العادية حتى تماثيل المجيبين الصغيرة الحجم، هذا الموقف تطور عن ما كان موجوداً في بعض الحضارات القديمة من دفن أحد الأشخاص الأحياء الذين يحتاجهم الميت دائماً ـ كالزوجة ـ معه.

ولكن في صورة بدائية، ومن مجموع هذه الأساطير نشأت الأديان البدائية وظهرت أولى نظريات العلوم التي حاول بها الإنسان أن يفسر العالم وظواهره.

وكمرحلة تالية لتأسيس الدين البدائي ظهرت فكرة الأرواح نتيجة لعجز الإنسان عن تقبل فكرة الموت، وفي البداية صور الإنسان الروح بشكل مادي إذ جعلها تحتاج إلى الغذاء والمأوى ومن هنا نشأت ظاهرة تقديم القرابين للموتى وبناء المقابر لهم وفي مرحلة تالية انفصلت الروح عن شكلها المادي الجسدي وتحولت إلى روح للبطل الأسطوري ومن ثم الإله أو المعبود، وهكذا تحولت الأساطير إلى لاهوت، أي أن الروح قد تحولت إلى قوة طبيعية غير منظورة كالريح مثلاً أو الروح التي تسيطر على العمليات الكيميائية، وهكذا ترتبط الأسطورة بالعلم مرة أخرى.

وبمجرد استقرار فكرة الأرواح أصبحت الطقوس الدينية البدائية أكثر انتظاماً فاكتمل الدين القديم والذي كان في جوهره ديناً مادياً يرتبط بالحياة الإنسانية أكثر من ارتباطه بفكرة ما بعد الموت.

وكان طبيعياً أن تتعدد الآلهة في الحضارات القديمة فلكل عشيرة أو قبيلة أو مدينة إلهها الخاص الذي يعبر عنها ويضمن لها كيانها واستمرارها، وعندما تم التوحيد، السياسي والاجتماعي بين هذه الأقسام الأولى للمدينة كان لا بد بالضرورة من ظهور أحد هذه الآلهة، وهنا ترسخت ظاهرة الآلهة المتعددة للمدينة الواحدة مع وجود كبير لهذه الآلهة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة «ثيوس» الاغريقية ليس معناها الله إذ لم توجد في هذه الفترة العلاقة أو الصلة بين اللاهوت والمبادىء الأخلاقية فقد تعامل الاغريق مع الآلهة كما تعامل معها غيرهم من الشعوب البدائية فالقوة الطبيعية المحيطة بهم هي أربابهم، وكل ما فعلوه هو محاولة الإبقاء على الصلة الطيبة بينهم وبين هؤلاء الأرباب بشتى الوسائل، وقد جعل شعور الاغريق المسرحي المرح الخلاق تصويرهم لهذه القوى يكاد يقترب من صورة الإنسان. ثم بدأ الدافع إلى الوحدة والنظام يؤثر تدريجياً فقل عدد الآلهة وتجمعوا في أسرة الهية واحدة ورغم أن بعض القوى

الطبيعية لا تخضع لقانون وهي أحياناً تكون في صراع ظاهر مع بعضها مما يعوق عملية الوحدة والنظام إلا أن الكون يحتويه قانون منظم قد تحاول هذه القوى خرقه دون جدوى وبمعنى آخر هناك قوة أخرى أقوى من الآلهة تدعى «أنانكى» أو «ما ليس منه مفر» أو أحياناً يدعى «مويرا» أو «القدر» وهي فكرة القوة العليا الغير مشخصة التي احتوت على العنصر الأول الذي نشأ منه الدين والعلم على السواء.

ثم بدأت عملية الجمع بين اللاهوت والأخلاق تدريجياً فقد كانت عملية تقديم القرابين للالهة على سبيل المثال تتطلب طهارة ظاهرية، وبمرور الوقت اقتضت أيضاً الطهارة الباطنية، كما أن ذنوباً أو خطايا معينة لم يكن قانون البشر يعاقب عليها أو لم يكن بالاستطاعة كشفها أصبحت أشياء تعاقب عليها الآلهة، ولهذا بدأ الدين يحتل مكانة متميزة كمصدر للتشريع الأخلاقي.

وعند هذا الحد أصبحت الآلهة أكثر روحانية وتحولت «أنانكى» لتصبح هي التعبير عن إرادة زيوس. ومثل هذه الفكرة عن زيوس لا بد وأنها قد أحدثت نوعاً من التناقض ـ خاصة عند المحدثين ـ إذا قورنت بما عرف عن زيوس من عنف وتسيب أخلاقي وجموح جنسي وطبيعة الفكرة التي تقول بأن الآلهة تخطت مرحلة القوى الطبيعية لتصبح قوى أخلاقية أيضاً.

غير أن مستقبل التفكير الديني عند الاغريق لم يكن رهناً بالأساطير ولا بآلهة الأوليمبوس ولا بديانات الأسرار. ولكنه كان رهناً بالفلسفة، فالعنصر الإغريقي في المسيحية واضح تماماً وبعضه يعود إلى أفلاطون. إن زيوس الذي كتب عنه ايسخولوس كان معبوداً خاصاً بالمدينة الاغريقية المحدودة مما لم يسمح له بأن يصبح الها للجنس البشري. كما أن اله اليهود لم يكن من الممكن أن يصبح اله الأمم الأخرى دون تغيير جسيم يلحق به أما الفلسفة الاغريقية وخاصة فكرة أفلاطون عن المعبود المطلق الباقي فقد كانت هي التي مهدت للعالم ظهور دين جديد[1].

---

(١) كيتو. الاغريق. صفحات ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

مصادر دراسة الأساطير

في مجال دراسة تاريخ الحضارات القديمة المراجع هي كتب كتبها مؤرخون أو كتاب محدثون تتكلم عنه أما المصادر فهي المنبع الأصلي الذي نستقى منه معلوماتنا، ونعتمد في هذا على نوعين أساسيين من المصادر هما:

١ ـ مصادر مكتوبة:

وتتناول كل ما خلفه لنا اليونان أو الرومان عن طريق الكتابة سواء شعراً أو نثراً، وتشمل كتابات المؤرخين والمفكرين والأدباء وغيرهم.

٢ ـ مصادر غير مكتوبة:

أي الآثار وكل ما يدخل تحتها من البقايا المعمارية والنحتية والتصوير والأواني الفخارية والفنون الصغرى والنقوش والعملة.

وعادةً عند دراسة الأسطورة ومحاولة التحقق من أصولها القديمة يكون التركيز على المصدر المكتوب انطلاقاً من الفرضية المنطقية التي تقول بأن موضوع الأسطورة يتخلق أولاً في الذهن ثم يترجم رواية أو كتابة وفي النهاية يتجسد في شكل مادي كتمثال أو معبد أو نقش أو ما شابه ذلك، ولهذا سيكون تركيزنا في الصفحات التالية على المصادر المكتوبة شعراً أو نثراً.

أولاً ـ هوميروس:

وهو أعظم وأشهر شعراء الملاحم الاغريق على وجه الاطلاق تضاربت الآراء حول شخصيته وعلاقته بأعماله[1]، ومن المرجح أنه يعود إلى الفترة من القرن الحادي عشر إلى القرن السابع قبل الميلاد[2]، وأشهر وأعظم أعماله كانت الإلياذة

---

(١) G. Murray, Rise of Greek Epic, pp. 240 FF.

(٢) عبد المعطى شعراوي. أساطير إغريقية. ص ١٢.

راجع أيضاً. لطفي عبد الوهاب يحيى: هوميروس تاريخ حياة عصر راجع أيضاً «بتلر» في=

والأوديسية. والالياذة عبارة عن ملحمة شعرية طويلة يسرد فيها هوميروس قصة حروب طروادة التي نشبت بين الاغريق وأهل طروادة، وهي مدينة تقع في آسيا الصغرى كان لها موقع تجاري متميز نتيجة لاختطاف باريس أحد أمراء طروادة لزوجة منيلاوس أحد قادة اليونان وتدعى هيلين واستمرت هذه الحروب كما يقص هوميروس ـ عشر سنوات انتهت بسقوط طروادة وانتصار الاغريق.

أما الأوديسية فتحكى في قالب شعري ملحمي أيضاً صراع أوديسيوس أحد أبطال حرب طروادة من الاغريق للعودة إلى موطنه ايثاكا والمغامرات التي يتعرض لها خلال رحلته الطويلة التي استغرقت ـ كما يقص هوميروس أيضاً ـ عشر سنوات أخرى وتنتهي بعودته سالماً إلى وطنه بعد عشرون عاماً واستعادته لعرشه الذي طمع فيه الطامعون أثناء غيبته الطويلة في طروادة.

وعبر أربعة وعشرون كتاباً هي مكونات الإلياذة ومثلها للأوديسية يحكى هوميروس المئات من الأساطير اليونانية تفصيلاً أو حتى بإشارة موجزة ويصور لنا عالم الآلهة والبشر مختلطين إلا أنه يحدد العلاقات بوضوح مما دعا بالتأكيد مؤرخاً مثل هيرودوت إلى اعتبار هذين العملين بالإضافة إلى أعمال هسيودوس ثبتاً واضحاً للآلهة بأنسابها وعباداتها واختصاصاتها وأشكالها[1].

ثانياً: هسيودوس:

ويلي هوميروس في الأهمية وإن كان يجنح إلى الشعر التعليمي كما يتضح من قصيدتيه الطويلتين «الأعمال والأيام» و «أنساب الآلهة».

وقصيدة الأعمال والأيام عبارة عن مجموعة من الأساطير والنصائح الأخلاقية وناتج خبرة عملية في عدة مجالات وبخاصة الزراعة يربط بينها خيط بسيط هو

= دراسته الشيقة حيث يصل تضارب الآراء هنا إلى حد إنكار الكاتب وجود هوميروس ويحاول التدليل على أن الأوديسية كتبتها شاعرة شابة من صقلية وليس هوميروس.

CF . S. Butler, The Authoress of the Odyssey, Passim.

(١) Herod, II, 53.CF. Earp. the Way of the Greeks, 134.

المعاناة التي لقيها هسيودوس وإحساسه بالظلم عندما غبنه أخاه برسيوس حقه في ميراث أبيهما واستأثر به وحده.

أما أنساب الآلهة فيشرح فيها هسيودوس ـ كما هو واضح من اسمها ـ بداية تكوين العالم وظهور الآلهة وأنسابها والعلاقة بينها وبين البشر. وربما تفوق هسيودوس على هوميروس في أنه كان يحاول من خلال أعماله تحليل بعض الظواهر والوصول إلى كنهها وذلك خلافاً لما اتبعه هوميروس من سرد للحوادث لا غير. والقصيدتين الطويلتين اللتين ترجعان ـ غالباً ـ إلى القرن التاسع قبل الميلاد تحويان العديد من الأساطير الاغريقية وبهذا يضاف كم جديد إلى ما وجد عند هوميروس[١].

ثالثاً: بنداروس:

وهو من أشهر الشعراء الغنائيين عند الاغريق وعاش فيما بين الربع الأخير من القرن السادس حتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وكتب فيما يقال سبعة عشر كتاباً في الشعر الغنائي وصلنا منها الأربع الأخارى فقط[٢] وكانت قصائده ملأى بالأساطير إلى حد كبير ويقسمها مؤرخو الأدب إلى أربعة مجموعات من القصائد هي: مجموعات القصائد الأولمبية، مجموعة القصائد البيثية، مجموعة القصائد النيمية ثم مجموعة القصائد الاسثمية[٣].

رابعاً ـ الدراما الاغريقية:

وهي من أهم مصادر معرفتنا بالأساطير وبخاصة أن بداياتها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالأسطورة والدين وبالتحديد ديونيسوس حيث تطورت من رقصات الديثورامبوس التي كانت تقام تكريماً لذلك الاله، ولهذا تعامل كتاب التراجيديا

(١) G. Murray, Ancient Greek Literature, pp. 53 - 54.G. M. Bowera, Landmarks in greek literature, pp. 61 - 62.

(٢) Cf. Evelyn - white, Hesiod, pp. xvii - xix. Sinclair, History of Classical Greek literature, pp. 134 - 135.

(٣) Lesky, History of Greek literature, p. 109.

الاغريقية أولاً مع أسطورة الاله ديونيسوس ثم اتجهوا لباقي الآلهة وأحياناً تعاملوا مع الأبطال الذين ارتبطت حياتهم وأعمالهم بشكل أو بآخر بأساطير الآلهة[1].

فقد سجل تاريخ الأدب الاغريقي حوالي الأربعمائة اسم لتراجيديات يتناول معظمها الأساطير بطريقة أو بأخرى، فايسخيلوس أول كتاب التراجيديا العظام كتب حوالي تسعين مسرحية وصلنا منها سبعة فقط. وسوفوكليس ثاني هؤلاء الكتاب كتب حوالي مائة وعشرون مسرحية وصلنا منها سبعة أيضاً، أما يوربيديس ثالث هؤلاء الكتاب فقد كان أفضل حظاً إذ وصلنا من أعماله ثماني عشر تراجيدية من أصل تسعين مسرحية كتبها.

ومن مجموع التراجيديات التي وصلتنا وهو اثنين وثلاثين مسرحية لا توجد إلا مسرحية واحدة هي (الفرس لايسخيلوس) تستمد موضوعها من حادثة تاريخية واقعية، أما الباقي فهو يتعامل مع العالم الأسطوري للإغريق أما الكوميديا فلم تختلف كثيراً فقد وصلنا من أعمال اريستوفانيس أشهر كتاب الكوميديا اليونانية إحدى عشر مسرحية من أصل أربع وأربعين عمل كتبه.

وكتاب الكوميديا وإن لم يتعاملوا مع الأسطورة بشكل مباشر كالتراجيديا إلا أن أعمالهم لم تخلوا أبداً من الإشارة للأساطير والمعتقدات الدينية بل وصل بهم الأمر إلى السخرية منها[2].

خامساً ـ النثر:

ويشكل النثر الإغريقي مصدراً لا بأس به للأساطير حتى من خلال كتابات قد تبدو للوهلة الأولى لا علاقة لها بالأساطير كالتاريخ على سبيل المثال، فنرى مؤرخاً شهيراً مثل هيرودوت الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وكتب تاريخاً للحروب الفارسية اليونانية يؤخذ كمصدر لمعرفتنا بالأساطير لأن كتابته التاريخية

---

(١) Idem, Greek Tragedy, pp. 30 - 39.

(٢) CF. Haigh Tragic Drama of the Greeks, Passim.

امتلأت بالخرافات والتعميمات الساذجة والاستنتاجات الخاطئة المبنية على بعض الظواهر الفردية، إلا أن كل هذا لا يقلل من قيمته كأول إغريقي يحاول كتابة التاريخ بطريقة منظمة إلى حد ما[١].

ويلي هيرودوت مؤرخ آخر هو ثوكيديديس وكتب في أواخر القرن الخامس ق. م تاريخاً للحروب البلوبونيزية لم ينته منه واختلف عن سابقه في أنه تميز بالدقة والتحليل العلمي في كتاباته كما اهتم بالمجتمع الذي عايشه، إلا أن الاثنان يشتركان في استعمالهما للأساطير بكثرة في كتابتهما[٢].

هذا غير كتابات أفلاطون الفلسفية من خلال محاوراته الشهيرة التي امتلأت أيضاً بالأساطير سواء بغرض الاستشهاد بها أو النقد والتحليل، بالإضافة لكتاب باوسانياس في «وصف بلاد اليونان» الذي كتبه في القرن الثاني الميلادي ويصف فيه اليونان جغرافياً وتاريخياً من خلال رحلاته المتصلة في كل أرجاء اليونان وكان طبيعياً في مثل هذا الوقت أن يمتزج التاريخ عنده بالأسطورة التي كثيراً ما تظهر في كتاباته.

سادساً ـ كتابات الرومان:

يقول الشاعر الروماني هوراتيوس أن الرومان هزموا الاغريق عسكرياً في نفس الوقت الذي هزمهم فيه الإغريق فكرياً.

ويبدو هنا واضحاً (في حدود الخط الذي يسير فيه هذا البحث) في تأثر الأساطير والديانة الرومانية بالأساطير والديانة الإغريقية مما يجعل من الضروري التعرض لكتابات الشعراء وكتاب النثر الرومان الذين يمكن اتخاذهم مصدراً لا يستهان به للأساطير الرومانية أو بمعنى آخر الأساطير اليونانية في شكلها الروماني.

وكما يقفز إلى الذهن مباشرة اسم هوميروس وملحمته الشهيرة «الالياذة» عند الحديث عن الشعر الاغريقي، كذلك يقفز إلى الذهن اسم «فرجيليوس» وملحمته الشهيرة (الانيادة) عند الحديث عن الشعر اللاتيني.

---

(١) G. M. A. Grube, the Greek and Roman Critics, p. 33.

(٢) Horace, carmia, II, 3, 136.

وأول عمل ظهر لفرجيليوس كان (الرعويات) عام ٣٧ ق م ثم (الزراعيات) عام ٢٩ ق. م ثم جاءت (الانيادة) التي استمر يكتبها لمدة إحدى عشر عاماً ومات قبل أن يتمم مراجعتها وهي استمرار بشكل من الأشكال لإلياذة هوميروس إذ تحكى قصة «اينياس» أحد أبطال طروادة التي سقطت بعد حصار الإغريق لها ثم تجواله بعد ذلك بحثاً عن وطن جديد غير طروادة، ولذا فكان من الطبيعي أن تمتلىء هذه الملحمة بالأساطير خاصة الاغريقي منها[1].

وعند الحديث عن الشعر اللاتيني كمصدر للأساطير لا بد من التعرض للشاعر «أوفيد» وإن كان شعر أوفيد لم يسهم بشيء في تحقيق برنامج الإصلاح الذي بدأه جايوس أوكتافيانوس المعروف باسم «أوغسطس» في روما مما دعا به إلى نفي أوفيد إلى أقصى حدود الامبراطورية، إلا أن أحد أعمال أوفيد وهو (التحولات)[2] يمثل لنا مصدراً هاماً للأساطير اليونانية والرومانية إذ هو يتعرض فيه بشكل مباشر لفكرة التغير الذي قد يطرأ على الكائنات سواء بشرية أو غير بشرية. هذا غير عدد آخر من أعماله يمتلىء كذلك بالأساطير مثل «فن الحب» و «علاج الحب» و «الأعياد».

كذلك يمكن استخراج بعض الأساطير من كتابات شعراء آخرين أمثال كاتوللوس وقصيدته الشهيرة (عن طبيعة الأشياء) وهوراتيوس وكتاباته في الهجائيات والأناشيد ورسائله الشهيرة. كما أن كتابات تاريخية مثل كتابات سالوستيوس وتاكيتوس وليفيوس رغم أنها تتعرض أساساً لموضوع تاريخي إلا أنها تسقط غالباً ـ كما حدث عند هيرودوت ـ في مصيدة الخلط بين التاريخ والأسطورة وبذا تصبح ذات أهمية لنا كمصدر ولو غير مباشر للأساطير.

---

(١) فرجيل: الالياذة. ترجمة عبد المعطى شعراوي وآخرون الجزء الأول، ص ٣١.

(٢) ظهرت ترجمة عربية لهذا العمل تحت اسم (مسخ الكائنات) قام بها د . ثروت عكاشة.

تفسير الأسطورة

على العكس مما قد يبدو للوهلة الأولى فالتعامل مع الأسطورة يتم بحذر ودقة شديدين إذ أنه من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ الأسطورة بمعنى أول ظهور لها كنص مكتوب، ونفس الصعوبة تظهر عند محاولة تحديد المكان الذي نشأت فيه الأسطورة وإذا استطاع الباحث تحقيق هذين المطلبين كخطوة أولى لدراسة الأسطورة يبدأ في التعامل معها من خلال منهج يتلخص في الجوانب الأربعة التالية:

١ ـ الأسطورة هي رمز لحقيقة فلسفية قديمة يمكن الوصول إليها عن طريق دراسة الأسطورة وتحليلها مع مقارنتها بالظروف البيئية والتاريخية التي نشأت فيها.

٢ ـ الأسطورة هي انعكاس لعمليات وظواهر طبيعية لم يستطع الإنسان القديم تفسيرها كظواهر الحمل والولادة ودورة النبات والزلازل والبراكين والفياضانات ومواسم القحط وغيرها مما دعا به لتقديسها ونسج العديد من الروايات حولها.

٣ ـ الأسطورة هي انعكاس للظروف النفسية التي يحياها الإنسان من خلال احتكاكه بالبيئة المحيطة به ومحاولته المستمرة للتواؤم مع هذه البيئة، وفي حالة فشله في إحداث هذا التوافق تظهر الأسطورة كنوع من التعويض عن هذا الفشل.

٤ ـ الأسطورة هي وصف وسرد لحقائق ومواقف وأحداث تاريخية موغلة في القدم وذات طابع منفرد وبمرور الزمن تتحول هذه الحقائق إلى أساطير[١].

وإذا حاولنا تاريخياً تتبع المشتغلين بالتعامل مع الأسطورة ونقدها لوجدنا أن أول من نقد الأسطورة الإغريقية وهاجم ظاهرة تعدد الآلهة فيها وتصويرها بشكل بشري كان كسنوفون (٥٧٠ ـ ٤٧٩ ق. م) يليه ثيوجينيس الذي رأى أن الأسطورة ما هي إلا قصة ترمز إلى الظروف البيئية التي يحياها الإنسان من خلال صراعه الدائم معها. فالاله هيفيستوس هو النار، وبوسيدون هو الماء وجيا هي الأرض وهيرا هي

---

(١) Rose, Greek Mythology. p. 9 - 10.

الهواء وهكذا. أما ايوهيميروس الذي كتب في حوالي القرن الرابع ق .م فكان أول من نادى بأن الأسطورة ما هي إلا حادثة تاريخية قديمة حدثت بالفعل ثم بمرور الوقت ودخول العديد من الإضافات التي غالباً ما تحدث نتيجة لنقل الحادثة عن طريق الرواية الشفوية تحولت الحادثة التاريخية إلى أسطورة.

وقد انتشر هذا التفسير عند المسيحيين في بداية ظهور المسيحية كمحاولة من آباء الكنيسة للالتفاف حول الأسطورة القديمة بشكلها الوثنى وتحويلها إلى حادثة تاريخية وربما كان ذلك محاولة للتخلص من الأشكال الوثنية التي سادت المجتمع في ذلك الوقت رغم انتشار المسيحية أكثر من كونه قناعة أكيدة بفكرة ايوهيميروس حول الأسطورة والتاريخ.

أما في العصور الوسطى فكانت سيطرة الكنيسة الواضحة والأكيدة في كل نواحي الحياة وتكفيرها لكل ما هو ليس بمسيحياً سبباً في عدم التعامل مع الأساطير بإعتبارها رجس من عمل الشيطان وبالتالي لم تظهر ـ على حد علمنا ـ دراسة للأسطورة ترجع إلى هذه الفترة.

أما عصر النهضة فيظهر لنا فيه فرنسيس بيكون في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ليعيد إلى الذهن نظرية ثيوجينس حول تشخيص الأسطورة وتفسيرها تفسيراً مجازياً فديونيسوس هو المعاناة في الحياة وناركيسوس هو حب النفس وأبو الهول هو العلم وهكذا. وفي أوائل القرن السابع عشر أيضاً يظهر العالم الألماني كروزر الذي رأى أن الأسطورة هي نوع من الدين نشأ نتيجة وحي ثم نقلت إلى الأجيال التالية في شكل رمزي وقد ظهر هذا الدين أو الوحي في الشرق ثم انتقل إلى اليونان ليصلنا بشكله الحالي.

أما في العصر الحديث فيبدو أن الأسطورة قد استهوت العديد من العلماء فيظهر لنا في أوائل القرن التاسع عشر العالم الألماني موللر بأول دراسة علمية جادة حاول فيها تنقية الأسطورة من الشوائب التي علقت بها والإضافات التي قام بها الشعراء وكتاب الدراما والفلاسفة وغيرهم في محاولة منه لتتبع أصولها ومقارنتها

بظروف الحياة التي نشأت فيها. وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهر تايلور عالم الاجتماع والانثروبولوجي الشهير الذي درس الأساطير على أساس علاقتها بتكوين المجتمع وحاول تصنيفها في مجموعات متشابهة رغم كونها تنتمي لثقافات مختلفة.

ويظهر في نفس الوقت تقريباً هربرت سبنسر بنظريته حول عبادة الإنسان القديم للأسلاف ومحاولة تجسيد الظواهر الطبيعية في أشخاص عن طريق التسمية كإطلاق أسماء رعد وبرق وشمس وأسد وفهد وغيرها من الأسماء على البشر ثم تحولت هذه الأسماء إلى أساطير بالتدريج وهي عادة لا زالت موجودة حتى في مجتمعاتنا الحديثة.

وفي أوائل القرن العشرين يظهر اندرولانج الذي ربما كانت آراؤه هي الرد المناسب على آراء كروزر حول التزاوج بين الدين والأسطورة وأنهما شيئان منفصلان تماماً، فالأسطورة ظهرت نتيجة لخيال مر به الإدراك البشري، أما الدين فقد ظهر نتيجة مرور نفس الإدراك بحالة من الخضوع والتأمل الروحي الجاد. ثم يظهر جيمس فريزر بكتابة الضخم جداً (الغصن الذهبي) وهو واحد من أشهر الكتب التي تناولت الديانات البدائية وأضخمها. ولكن ربما قيمته تكمن في غزارة المادة العلمية التي جمعها وصنفها فريزر، أما تعامله مع هذه المادة فقد كان من منطلق لم يوافق عليه العديد من العلماء ويتلخص في أن دورة النبات هي التي تحكم الأساطير في العالم القديم ما بين الموت ثم البعث مرة أخرى كما حدث قصة في إيزيس وأوزوريس.

ثم في منتصف القرن العشرين يظهر سيجموند فرويد عالم النفس الشهير وتلميذه يونج ومذهبهما حول التفسير النفسي فالأسطورة عندهما ما هي إلا رغبات وانفعالات بشرية مكبوتة تظهر في صورة قصة يتحقق فيها ما لا يستطيع البشر تحقيقه في حياتهم العادية[١].

---

(١) وقد انتشر استعمال هذا المذهب. وحاول التطبيق في مجالات أخرى كالدراما والتاريخ.

George Devereux, Dreams in Greek Tragedy Oxford 1976.

Bennett Simon, Mindand Madness in Greece, cornell 1978. Rose, op. Cit, pp. 1 - 14.

أما النصف الثاني من القرن العشرين فلم يظهر جديد في مجال دراسة الأساطير رغم ظهور العديد من الأسماء مثل هاميلتون وروز وروبرت جرافز وغيرهم إلا أن كل منهم لم يخرج لنا بنظرية جديدة للأسطورة واكتفى فقط بمحاولة تبني موقف أو جزء من النظريات السابق عرضها[1].

الدين والأسطورة

في محاولة لفهم الأسطورة اليونانية القديمة وإعطاؤها ما تستحق لا بد وأن نراها في الشكل الذي عرفت به عند الإغريق والظروف التي أحاطت بمولدها، أي في أشعارهم ومسرحياتهم وأعمالهم الأدبية والفنية الأخرى، أي دراستها في إطار السياق الاجتماعي والتاريخي للعالم الاغريقي الدائم التغير فيزداد إدراكنا للأسطورة ومفهومها بمدى إدراكنا لتاريخ وحضارة الشعب الذي تنتمي إليه واتصالاته بالحضارات الأخرى من حوله.

وبصفة عامة فإن الأساطير الإغريقية كانت أكثر إنسانية وعقلانية من غيرها، فلم يؤكد الاغريق على القصص الشعبي المغرق في الخيال كبعض الشعوب الأخرى وإنما ركزوا على أعمال الإنسان الفاني ومتاعبه كما في أشعار هوميروس التي تعد المنبع الأساسي لمعرفتنا بالأساطير.

---

(١) وعن التفسيرات المختلفة بشكل مفصل راجع أيضاً: عبد المعطى شعراوي ـ أساطير إغريقية. صفحات ٤١ ـ ٦٣ ومن الملاحظ هنا أن كل من هذه التفسيرات لم تتعرض للجانب الاقتصادي من حياة الإنسان القديم رغم أن بداية القرن التاسع عشر شهدت آراء موللر ونهاية القرن شهدت آراء تايلور اللذان اتفقا على ضرورة تفسير الأسطورة في إطار المجتمع الذي تنتمي إليه، وبالتالي النشاط الذي يحدث في مثل هذا المجتمع وهو بالضرورة نشاط اقتصادي لأن احتكاك الإنسان مع البيئة غالباً ما يتسم بالطابع الاقتصادي، وبينما لا يمكن تفسير أساطير مثل خلق العالم أو اكتشاف الإنسان للنار أو إيزيس وأوزوريس في ضوء آراء فرويد على سبيل المثال يمكن تفسيرها اقتصادياً لأنها غالباً ما تتعلق بمرحلة اقتصادية في حياة الإنسان عند اكتشافه للزراعة وإن كان التفسير الاقتصادي للتاريخ لا يزال يحظى بالكثير من القبول فلربما أمكن تفسير الأسطورة من هذا المنطلق أيضاً.

كان الإغريق كغيرهم من الشعوب الهندوأوروبية قد دخلوا مجتمعات نشأت فيها من قبل مجتمعات متشابكة وتعلموا الكثير وعلى ذلك نجد أن أعظم الشخصيات الأسطورية تنتمي إلى التراث الهندوأوروبي كما في حالة زيوس أو جوبيتر، وبدأ الاغريق حوالي ٢٠٠٠ ق. م في الدخول لأرض اليونان الرئيسية والاستقرار على السواحل الايجية للبحر المتوسط ومن ثم ظهرت الحضارات المينوية والموكينية، وتركت كريت أثراً عميقاً في الخيال الاغريقي كأسطورة زيوس وايوروبا ابنة ملك صور الفينيقية التي أنجبت له مينوس، وملحمتي الالياذة والأوديسية وما حوته من أساطير تتصل بجميع المناهج الالهية والبشرية والبطولية.

تعريف الدين:

في تعريف الدين ربما كان من الأفضل الابتعاد عن المناهج النفسية الاستبطانية التي استعملها سبنسر أو ماكس موللر أو المنهج الحدسي الذي استعمله برجسون لعدم جدواهما في إخراج تعريف محدد مقنع، وربما كان المنهج الموضوعي المقارن أفضل إذ يقوم على المقارنة بين الأديان البدائية وغير البدائية لتعيين عناصرها العامة، وبمثل هذا المنهج نصل إلى تعريفات فريزر والذي يبدأ دراسة الدين بظهور فكرة الآلهة والذي حدد الدين بأنه الإحساس بأن هناك نفساً خفية تعترف النفس البشرية بما لها من سلطان على العالم وعليها يجب أن تكون على اتصال دائم بها ما أمكن.

لكن رأي فريزر ليس دقيقاً ـ كما يرى دوركايم ـ لأنه من الممكن ظهور دين بدون ظهور فكرة الأله بل يزيد عليها أن هناك بعض الديانات لم تتحقق فيها فكرة الدين مثل البوذية التي هي في جوهرها أخلاق بغير دين أو حتى فكرة الطبيعة فهي تقوم على الاستقامة والتأمل والحكمة التي هي غاية الغايات. كما يرى دوركايم أن الظواهر الدينية تنقسم إلى قسمين: العقائد والعبادات، والعقائد هي حالة فكرية بينما العبادات هي نماذج وطرز من الأفعال الجسمية وغير الجسمية وكل العقائد الدينية تقسم الأشياء إلى قسمين: مقدس وغير مقدس، وهذا التقسيم هو الصفة المميزة

للفكر الديني.

بهذا يمكن تحديد العقائد بأنها الأفكار والتصورات التي تعبر عن طبيعة الأشياء المقدسة وما بين تلك الأشياء من علاقات من ناحية وما بينها من علاقات بالأشياء المقدسة من ناحية أخرى. أما العبادات فهي طرز السلوك التي ينبغي أن يمارسها الإنسان حيال الأشياء المقدسة[1].

نشأة الدين وتطوره:

حول نشأة الدين ظهرت العديد من الآراء تبلورت في النهاية في نظريتين عامتين هما: النظرية التطورية القائلة بأن فكرة الاله وجدت في المجتمعات الأولى بشكل عقائد إنبثقت إما من الأفراد أو الجماعة، وبالتالي ففي كلتا الحالتين يكون من عمل الإنسان. النظرية الفطرية القائلة بأن فكرة الاله فكرة فطرية وجدت في عقل الإنسان وغرسها فيه موجود أعلى، وأن للدين حقيقة خارجية هي الاله منفصلة عن الجماعة والكون كله مباينة له وإن تلك الحقيقة الخارجية هي التي غرست في الإنسان فكرة الاله.

وبما أن النظرية الفطرية من الصعب مناقشتها إذ أنها إما أن تؤخذ على علاتها أو تترك بكاملها لذا سنركز في العجالة التالية على مناقشة النظرية التطورية من خلال ثلاثة مذاهب أساسية في تطور الأديان هي المذهب الحيوي والطبيعي والتوتمي:

١ ـ **المذهب الحيوي**: وأشهر من نادى به كان تايلور واعتنقه سبنسر من بعده، ويقوم هذا المذهب على أن أقدم الأديان في الوجود هو الاعتقاد في الأرواح وعبادتها وبدأت فكرة الأرواح عندما اكتشف الإنسان الأول أن فيه كائناً آخر غير الجسم يستطيع ـ في ظروف معينة ـ أن يترك هذا الكائن العضوي الذي يسكن فيه وأن ينطلق بعيداً. تلك هي النفس أو الروح التي اعتقدت الكثير من المجتمعات البدائية أن لها ـ بجانب قدرتها الأثيرية العجيبة ـ القدرة المادية على النفع أو الإيذاء. ولما كانت

---

(١) على سامى النشار. نشأة الدين. النظريات التطورية والمؤلهة صفحات ٢١ ـ ٢٨.

الوسيلة الفعالة الوحيدة كي تترك النفس أو الروح الجسم المادي للإنسان هي الموت، وبمرور الوقت واستقرار المجتمعات البدائية وزيادة عدد الموتى وبالتالي عدد الأرواح، بدأ الإنسان يكون لنفسه عالماً آخر مليئاً بالأرواح التي حاول دائماً أن يطلب رضاها وعفوها ويتخلص من غضبها عن طريق القرابين والأضحية والصلوات، وكانت الطقوس الأولى طقوساً للموت، والتضحيات الأولى قرابين غذائية تشبع حاجات الموتى، وكانت أولى المذابح التي تقدم عليها القرابين هي القبور[1].

٢ ـ المذهب الطبيعي: ومن أشهر أعلامه كان ماكس موللر وكوهن اللذان كتبا عنه في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ويقوم أساساً على أن الدين لا بد وأن يبدأ بتجربة حسية أي أنه لا شيء يتحقق في عقيدة الإنسان ما لم يكن قد أتى من قبل عن طريق حواسه وذلك من خلال الظواهر الطبيعية المتغيرة التي تحيط بالإنسان وتثير فيه مختلف المشاعر والأحاسيس. ومع ذلك فلم تتكون الأديان وتنشأ إلا حين انتفت عن القوى الطبيعية الصفة المجردة وتحولت بالتالي إلى كائنات مشخصة حية وعاقلة لها قوى روحية أي الآلهة لأن العبادات عادة لا تتجه إلا لهذا النوع من الكائنات كالإله زيوس كتشخيص للشمس وهيرا للهواء وهيفايستوس للنار وبوسيدون للماء وجيا للأرض وغيرها.

ويعترض دوركايم على هذا التفسير من منطلق أن محاولات الإنسان البدائي للسيطرة على الطبيعة لم تكن كلها ناجحة وبالتالي سيكتشف هذا الإنسان عبث محاولاته ويكف عنها[2] إلا أن هذا الاعتراض مردود عليه إذ أن الإنسان غالباً ما يفسر عدم جدوى محاولاته بعيب قد تخلل طقوسه هو والدليل على ذلك أنه لا زالت بعض المجتمعات حتى هذا الوقت تعرف رقصة المطر التي يحاول الإنسان من خلالها التحكم في أوقات سقوط المطر خاصة في أوقات الجفاف.

---

(١) المرجع السابق: صفحات ٣٣ ـ ٦٧.

(٢) المرجع السابق، صفحات ٦٨ ـ ٨٩.

٣ ـ **المذهب التوتمي**: وقد بشر بهذا المذهب دوركايم نفسه الذي نقد المذهبين السابقين، وهو يعتقد بأن عبادة التوتم هي أقدم الأديان على الإطلاق إذ أنها ترتبط بفكرة العشيرة التي هي حتى الآن أول وأبسط نظام اجتماعي تم اكتشافه وتوتم العشيرة هو رمز لها يتصل بحياتها أوثق الاتصال وتستمد منه القوة وقد تسمى العشيرة باسم التوتم، أما نوعية التوتم نفسه فعادة ما تتصل بأنواع من النبات أو الحيوان وأحياناً بعض الظواهر الطبيعية، يتم تقديسها ومن ثم عبادتها وقد يحرم أكلها إذا كانت نباتاً أو قتلها إذا كانت حيواناً.

والتوتمية عند دوركيم مذهب في الوجود يفسر الكون وينسق بين عناصره المختلفة، وبهذا يقع في نفس الخطأ الذي اتخذه وسيلة لنقد المذهبان الحيوي والطبيعي[١].

---

(١) المرجع السابق، صفحات ٩٠ ـ ١٧٧.

الفصل الثاني
الديانات الوثنية في العالم القديم

أولاً : مصر القديمة

أدى شعور الإنسان الغريزي بالخوف من المجهول إلى احترامه لكل القوى التي تؤثر في حياته دون أن يتعرف كنهها، واعتقد الإنسان بوجود هذه القوى ثم كون في ذهنه صوراً لها، وأخذ يعطى كل منها شكلاً معيناً وإسماً خاصاً، بل أخذ يتمثلها على طريقته الخاصة فجعل من بعضها أصدقاء ومن البعض الآخر أعداء ومن هذا الشعور نشأت الديانة التي لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أن هناك قوى تحيط به وتؤثر عليه.

ومجّد الإنسان الأول آلهته أما لخير يرجو منها أو لخوفه ورهبته منها، ورغبته في اتقاء شرها وإبعاد أذاها عنه، أو لإعجابه بعظمة فيها لا يمكن إدراكها.

وكان للبيئة المصرية التي تتميز بانتظام أمورها واستقرار أحوالها الأثر الكبير الواضح في معتقدات المصريين وتفكيرهم الديني فقد كانت مظاهر الطبيعة أول ما أشعر المصري بوجود الآلهة، مثله في ذلك الوقت مثل الشعوب الأخرى القديمة، فكانت الأشجار والينابيع والأحجار والتلال والحيوانات هي مخلوقات حلت فيها قوى طبيعة غريبة لا سلطان له عليها ومن ثم كانت الطبيعة أول مؤثر مبكر في عقل الإنسان وصارت مظاهر الإلهية الأولى في نظره هي القوة المسيطرة على العالم المادي.

وأدى موقع مصر الجغرافي المحصن إلى أن يحيا أهلها حياة هادئة، لم يعكر صفوها إلا بعض الحروب التي حدثت من آن لآخر ولم يكن المصري متعطشاً نحو

الأخذ بالثأر، كما كان عليه الحال بين الشعوب الأخرى؛ ومن أجل هذا بقيت ديانته خلواً من الطقوس المخيفة ولم توجد فيها آلهة ظمأى للدماء، ولا طقوس تسرف في السرور أو الشراهة وأديت الطقوس الدينية بشكل هادىء رزين وعومل الاله معاملة الرجل القوي الذي يسعى الكل إلى تأكيد مظاهر إحترامه فيقدمون له المأكل والمشرب والزهور والملابس والحلى، ويشيدون له مسكناً يحرصون على أن يكون جميلاً نظيفاً.

وكان للأحداث التاريخية أثرها الكبير في الديانة المصرية فقد كانت البلاد تتكون قبل توحيد القطرين من عدة مقاطعات أو أقاليم، وكان لكل مقاطعة شارة خاصة تميزها عن سائر المقاطعات الأخرى، وكانت هذه الشارة أما صورة الاله الذي يعبد في الإقليم أو نباتاً مقدساً أو جماداً له قدسيته في نظر المجتمع الذي وجد فيه، وقد دلت شواهد الأحوال ـ كما يرى سليم حسن ـ على أن هذه الشارات قد اتخذها المصريون كرمز للالهة في الأقاليم التي تنسب إليها وهكذا كان في مصر نوع من الالهة الكبرى التي يمكن أن تسمى آلهة الأقاليم وهي تختلف عن غيرها من المعبودات بتسميتها منسوبة إلى المدن التي نشأت فيها. وحين اتحدت مناطق الأقاليم فيما بينها ـ سواء بالطريق الودي أو العسكري ـ إلى أن أدى هذا في النهاية إلى وجود مملكتين منفصلتين إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب نشأت الديانة التي ربطت بين آلهة الأقاليم، فلم تبطل عبادة اله الإقليم المهزوم بل كان الهه يضم إلى معبود القائد المنتصر مما أدى إلى وجود تداخل كبير في الديانة المصرية القديمة.

ويرى شارف أنه إذا تعرضنا لتقديس الالهة فلا نستطيع إلا أن نذكر نوعين منها وهما ما أظهرتهما الرسوم المصرية أما على هيئة بشرية برؤوس حيوانية ترجع إلى المركز الحضاري الخاص بمناطق شمال أفريقية الآهلة بالجنس الحامي الأفريقي، وأن مجموعة الآلهة ذات الأجسام البشرية الكاملة ترجع إلى المركز الحضاري الخاص بمناطق جنوب غربي آسيا الآهلة بالجنس السامي القديم.

ولقد كانت الآلهة تمثل في صورها الأصلية في بادىء الأمر كما ظهر في الشارات والرموز الدالة على المقاطعات، وكثيراً ما اختار المصري بعض الحيوانات مثل التمساح والثعبان ليرمز بها لبعض آلهته، كما اختار أحياناً بعض الحيوانات النافعة مثل الثور والبقرة، واختار كذلك أنواعاً أخرى من الحيوانات شغلت تفكير الرجل الساذج بحركاتها وأعمالها كابن آوى. واعتقد المصري أن هذه الحيوانات تحتوي شيئاً إلهياً في نفسها، بمعنى أنه إذا أراد أحد الآلهة أن يجسد نفسه للبشر. فإنه يختار حيواناً ترمز بعض صفاته إلى ما لهذا الاله من صفات ولكن من المعروف أن الإله لا يكون مجسداً في كل بقرة أو في كل تمساح، وعلى ذلك فقد كان المصري يقوم بذبح بعض هذه الحيوانات التي ترمز إلى الهه ولا يرى في ذلك عملاً مشيناً، وفي بعض الأحيان تحتفظ مدينة ما بنموذج واحد من هذه الحيوانات كممثل للإله و ذلك اعتقاداً أن جزءاً من الشخصية الالهية تسكن فيه بصفة مستمرة.

ونتيجة لاعتقادهم بأن لهذه الآلهة من المشاعر ما يحاكى مشاعر البشر من حب وكره وحماية وعقاب وعطاء وأخذ، فقد مثلوا بعض آلهتهم بأجسام آدمية ورؤوس حيوانية أو برأس أضيفت إليه علامة مميزة لذلك المعبود. ويرى بعض المؤرخين أن الانتقال إلى تمثيل المعبودات المحلية في صورة إنسانية يعد تطوراً كبيراً لم يصل إليه المصري إلا بعد أن بلغ مرحلة معينة من الحضارة، فبداية تحكم الإنسان وسيطرته على الحيوان والعالم المادي من حوله من جهة وبداية التركيز على الجانب المعنوي من جهة أخرى، جعل الإنسان يقدر ما للبشر من مزايا، ومن ثم فقد صور آلهته بأجسام آدمية. ولا يلقى هذا الرأي قبولاً من بعض المؤرخين الذين يرون أننا نخطىء إذا اعتبرنا ذلك المظهر تطوراً ويرون أن السبب في ذلك يرجع إلى رغبة الإنسان المصري أن يضفي على معبوداته صفاته وعواطفه الإنسانية، فجمع بين الإنسان والحيوان الذي يعبده عند تصويره الإله بصورة تتفق مع واقعيته، ومن ثم كان يرسم الاله برأس حيوان وجسم إنسان، أو بأي جزء من الحيوان يشير إلى أصل معبوده أو أي إشارة تميز طبيعته.

ومن أهم الألهة في مصر القديمة كان:

أوزير أو أوزوريس إله الخصب والزراعة والعالم الآخر، والإله رع أو الشمس مانحة الحياة، والإله حور أو الصقر حورس وهو ابن الاله أوزير، والآلهة ايزه أو ازيس زوجة الإله اوزير، والإله ست إله الشر، والإله بتاح حامى الفنون والصناعات، والإله تحوت إله الحكمة، والإله انوبيس حامى الموتى، والإله من إله التناسل، والإلهة حتحور راعية النساء والحب والموسيقى وغيرهم كثير، بالإضافة إلى الإله آمون كبير الآلهة وخالق الكون عند المصريين القدامى[1].

ثانياً: العراق القديم

عند دراسة الفكر الديني المبكر في العراق القديم يتضح تداخله المباشر مع الفكر الديني السامي في بلاد الرافدين مما أدى إلى ضرورة الرجوع إلى المصادر السامية لتتبع بعض الجوانب الأساسية في الفكر الديني السومري. ومن ناحية أخرى ينبغي الرجوع إلى مراحل عصور ما قبل التاريخ لدراسة الجذور الأولى للفكر الديني الإنساني.

وعبر الإنسان العراقي عن فكره الديني في عصور ما قبل التاريخ بصنع تماثيل طينية صغيرة لآلهة الأمومة وربما كان ذلك راجعاً بشكل رئيسي إلى تقديسهم للخصوبة وكل ما يؤدي إلى وفرة الإنتاج في الحياة، ويلاحظ كذلك وجود بقايا جثث أطفال دفنوا في أوان فخارية، وكانت رؤوسهم متجهة نحو الشمال، ويرى بعض الباحثين أن ظاهرة مقابر الأطفال بالذات تتصل بموضوع التضحيات البشرية استرضاء للقوى الإلهية، وعلى رأسها الهة الأمومة.

وتأثر الفكر الديني في العراق القديم بالمقومات البيئية والبشرية الخاصة بهذه المنطقة ومن أبرزها البيئة العراقية، التي تتميز أحوالها بعدم الانتظام ووجود نوع من

---

(١) أحمد أمين سليم، دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم، بيروت ١٩٩٢، صفحات ١٠١ وما بعدها.

العنف في بعض مظاهرها، فنهرا دجلة والفرات وإن كانا قد حققا للإنسان العراقي القديم قدراً كبيراً من الاستقرار المعيشي مكنه من صنع حضارته في عصور مبكرة لا تبعد كثيراً عن العصور التي نضجت فيها الحضارة المصرية الأولى، إلا أنهما في الوقت ذاته قد يفيضان على غير انتظار أو انتظام، فيحطمان السدود ويغرقان الأرض وقد يفيضان في غير أوقات الحاجة الملحة إليهما.

وإذا كان هذان النهران وفروعهما قد عملا على تيسير الاتصالات المائية بين أجزاء العراق القديم، إلا أن الملاحة فيهما لم تكن مأمونة دائماً، وذلك لشدة انحدارهما وسرعة جريان تياراتهما في أجزائهما العليا، وبطء جريانهما وكثرة مستنقعاتهما في أجزائهما الدنيا.

وبالإضافة إلى فياضانات دجلة والفرات، فالأمطار عاتية تحول الأرض إلى بحر من الطين يسلب الإنسان حرية الحركة وأحاطت بهم من الغرب والجنوب صحراوات وبوادي واسعة فقيرة في مواردها الطبيعية من المعادن والأحجار وسببت هذه الصحراوات والبوادي للإنسان العراقي القديم الكثير من المتاعب والمشاكل، إلا أنها في الوقت ذاته لم تكن شراً كلها فقد حققت له بعض النفع المتمثل في قيام أسواق تجارية على أطرافها، كما جاءت منها هجرات سامية كبيرة نجحت في ضم شملهم وتوسيع حدودهم كما فعل الأكديون الساميون وقلدهم بعد ذلك البابليون الساميون.

وإذا كانت المرتفعات الشمالية، والشمالية الشرقية قد عوضتهم ببعض المواد الأولية وبخاصة الأحجار، إلا أنها في الوقت نفسه كانت مصدر قلق كبير لأهل العراق، إذ كثيراً ما اجتازتها هجرات رعوية كاسحة حرمتهم من الاستقرار لفترات طويلة، وحدث ذلك على امتداد تاريخ العراق القديم مثل هجرات الجوتيين والكاسيين والحوريين والميتانيين وغيرهم، وأدت هذه الظواهر البيئية التي يغلب عليها المتاعب والمشاكل إزاء المنافع إلى التحكم في إرادة الإنسان ودفعته إلى الشعور بضآلته تجاهها، كما صبغت حياته ببعض الحدة والتوتر، وكان لذلك تأثيره

على الناحية النفسية والدينية للإنسان العراقي القديم.

ولقد نبع الفكر الديني السومري من مجموعة التجارب التي واجهها الإنسان السومري في جنوب العراق القديم، فالإنسان السومري بدأ حياته في تلك المنطقة بإنشاء القرى وإقامة الحياة الزراعية والصناعية المستقرة فيها، ولكنه سرعان ما واجه منذ البداية بيئة أرضية وجوية ومائية نهرية وبحرية متغيرة لا تنعم بالاستقرار ولا تنعم بالطمأنينة بل تتصف بالتقلب والتغير المستمر إلى حد تهديد حياة ذلك الإنسان السومري بالإفناء وإلحاق مختلف الصعاب بحياته ومصيره.

وتعرض الجانب الاقتصادي في حياته أيضاً للأضرار البالغة، وقد أدى ذلك كله إلى البحث والتعمق من جانب الإنسان السومري في دوافع تلك الأمور البيئية ووسيلة التحكم فيها وإحلال المنفعة العامة والطمأنينة مكان الجوانب الشريرة الضارة بحاضر الإنسان ومستقبله، ونتج عن ذلك مزيج من الفكر الديني الذي يبدو فيه بعض التناقض أحياناً، على الأقل بالنسبة إلى الفهم المعاصر الآن، كذلك فإن تعدد تجارب الإنسان السومري قد أدى إلى عدم توافر وحدة فكرية دينية بل مجموعات من الأفكار الدينية المترابطة في بعض الأحيان وغير المتكاملة أحياناً أخرى، وقد اتجه الإنسان السومري إلى البحث عن القوى الخفية الخيرة والشريرة التي اعتقد بتحكمها في عالمه الدنيوي والأخروي، وبدأ في محاولة تحديد مفهومها وتجهيز ما يلزم نحو اكتساب رضاها.

وقد اعتقد السومريون في وجود تنظيم جماعي لكافة القوى الإلهية وذلك في جمعية عمومية إلهية يسودها الحق والصدق، ويتجه بعضها إلى الظلم، وكان السومري يعتقد أنها ـ أي الآلهة ـ كانت تأكل وتتزوج وتشرب وتنجب وتحارب وتقتل وغير ذلك من مختلف ظواهر التصرفات الإنسانية البحتة. والواقع أن الإنسان السومري كان يهدف من وراء ذلك تقريب الصورة الإلهية من وجهة النظر الإنسانية حتى يستطيع الإنسان العادي الإعتقاد فيها دون صعوبة.

ومن أهم الآلهة في العراق القديم لدينا:

آنو إله السماء، انليل إله القوة والعواصف والفياضانات، انكى إله الحكمة، سين إله القمر، شمش إله الشمس، عشتار إلهة الحرب والحب والتناسل والخصوبة، والإله مردوخ والإله آشور وغيرهم كثير[1].

ثالثاً: الفينيقيون

كانت ديانة الفينيقيين مجموعة من الطقوس والعبادات تقيمها المدن الفينيفية، وتختلف من مدينة إلى أخرى، وإن اشتركت جميعها في نظرة القوم العامة، وفي الظواهر الكونية والطبيعية، وكانت طقوس العبادة منبثقة من حياة القوم الزراعية، وكان القحط يهددهم، والرياح الحارة التي تهب من الصحراء كانت تقضي على مزارعهم، كما كان القوم مهددين بقلة المطر، أو بسقوط البرد الذي يتلف الزرع والضرع.

ومن ثم فقد لجأ القوم ـ حماية لأنفسهم ـ إلى أن يضفو على الطبيعة وظاهراتها، صفات إنسانية، وجعلها قريبة منهم، وأن يقدم لها المرء القرابين يسترضيها بها، ثم أوجد سلسلة من العبادات بغية التأثير على هذه الطبيعة.

وهكذا كانت المعبودات الفينيقية ـ شأنها في ذلك شأن غيرها من معظم الديانات القديمة ـ تدور حول تقديس مظاهر الكون، وعبادة الطبيعة، ومن ثم فقد كان لكل مدينة فينيقية، «بعلها» ـ أي سيدها ـ وهو جد ملوكها، ومخصب أرضها، فكل الحبوب والخمور والتين والكتان من عمله.

هذا ـ وكما أن لكل مدينة إلهها، أو آلهتها ـ فقد كان لهذا الإله ـ أو الآلهة ـ في الغالب، مكان بين الآلهة التي يعبدها القوم جميعاً، وكانت تمثل وظيفة معينة من وظائف الآلهة المشتركة ـ أو مظهراً معيناً من مظاهرها ـ ويتمثل هذا ـ على أحسن

---

(١) أحمد أمين سليم، المرجع السبق، صفحات ٢٥٩ وما بعدها.

وجه ـ في نصوص رأس الشمرا، فهي إنما تذكر الآلهة، ثم أحداثاً تتعلق بهذه الآلهة، لا تتصل دائماً اتصالاً مباشراً بعبادات تلك المدينة.

هذا وكان الإله ـ أو المعبود ـ إنما يوصف بالمكان الذي يُعبد فيه، مثل «بعل روشي»، أي «سيد الرأس»، و «بعل سافون» ـ أي سيد الشمال ـ و «بعل شمين» ـ أي سيد السماوات ـ و «زيوس كاسيوس جوبيتر» ـ الإله الذي يحمي «جبل كاسيوس» ـ.

وكان للحياة البحرية التي عاشها الفينيقيون أثرها في نسبة صفات بحرية إلى آلهتها، وقد أضيفت تلك الصفات إلى الصفات القديمة، وقد كان يغلب على «بعل صور» في العصور القديمة الصفة البحرية، كما كان «بعل داجون» الملقب «سيتون» (Siton) يوصف كذلك في العهود القديمة بصفات بحرية.

ولعل أول ما يُروع المرء في «الدين ـ الكنعاني ـ الفينيقي» أنه أدنى كثيراً من دين أرض الرافدين في المستوى الحضاري، ويتجلى هذا بأجلى صورة في قسوة بعض طقوسه في نواح عدة، واهتمامه الغليظ بالعناصر الجنسية لدرجة تدعو إلى التقزز.

هذا فضلاً عن أن آلهة الدين الكنعاني الفينيقي، ذات طابع غير محدد أو ثابت، فهي كثيراً ما تتناوب صفاتها ووظائفها وصلاتها ـ بل كذلك جنسها ـ حتى ليصعب أحياناً أن نعرف حقيقة طبيعتها وصلات بعضها بالبعض الآخر.

لعل السبب في ذلك إنما يرجع (أولاً) إلى انعدام الوحدة بين القوم ـ أي بين الفينيقيين أنفسهم ـ ويرجع (ثانياً) إلى عدم وجود طبقة من الكهان منظمة تنظيماً كافياً، تستطيع أن تقيم تنظيماً دينياً سليماً كما في مصر أو العراق القديم. ومن أهم الآلهة الفينيقية كان:

الأله إيل كبير الآلهة، والإله بعل أو السيد إله القوة والزراعة، والإله أشمون إله الطب، والإله داجون إله البحر والأسماك، والإله رشف إله الضوء، والإله أدونيس إله العالم السفلى، والإلهة عشتارت أو الزهرة إلهة التناسل والخصوبة

وغيرهم[1].

رابعاً؛ الفرس

لا يوجد لدينا فكرة واضحة عن طبيعة الفكر الديني القديم في إيران قبل ظهور زردشت والمعلومات التي بين أيدينا مستمدة من كتاب زردشت الديني ومما ورد في كتابات اليونان.

ويستدل مما ورد في الأوستا أن القوم قد عبدوا الأجرام الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم، كما أنهم قدسوا عناصر الطبيعة من ماء ونار وتراب، وروى المؤرخ هيرودوت أن الفرس كانوا يعبدون الشمس والقمر والأرض والنار والماء والنجوم منذ أقدم الأزمنة، وبقي في دين زردشت بقايا من الفكر الديني السابق له تمثل في تقديس الأجرام الطبيعية وتقديس عناصر الطبيعة، كما أن به دعوة حارة إلى نبذ السحر وعبادة الشياطين.

زردشت:

يعتبر زردشت المؤسس الحقيقي للدين الفارسي القديم فشخصيته وتعاليمه قد صبغت هذا الدين بصبغة قوية ميزته عن غيره من الأديان الآرية. ويختلف الباحثون حول زمان مولده ومكانه، وفيما يتصل بزمان مولده، فقد اتجه المؤرخين اليونان إلى القول بأنه قد ظهر قبل الميلاد بحوالي ستة آلاف عام أو أكثر، بينما ترى الكتب اليهودية أنه ظهر قبل حملة الإسكندر بثلاثمائة عام، أما الروايات الزردشتية فتذكر أن زردشت قد ولد في حدود سنة ٦٦٠ ق .م.

ويتجه العلماء المحدثين إلى تحديد تاريخ مولده فيما بين القرن الرابع عشر والقرن السادس قبل الميلاد، وإن كان معظم العلماء يتجهون إلى الأخذ بالرأي الذي نادى به وليامز جاكسونVW. Jackson وهو أن زردشت قد ولد في النصف الثاني من القرن السادس ق. م.

---

(١) محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية، بيروت ١٩٩٤ صفحات ٣١٣ وما بعدها.

أما عن المكان الذي نشأ فيه، فكان الرأي القديم يتجه إلى أنه في بلخ، ولكن الرأي الغالب أنه ولد في منطقة أذربيجان وفي شيز على وجه التحديد، وهذا الرأي الأخير يطابق ما ورد في الأوستا والكتب البهلوية، ويذكر بعض المؤرخين الإسلاميين كالبلاذري وابن الفقيه والمسعودي وأبي الفداء أن زردشت من أذربيجان، وأنه ولد في (أريه) وعلى ذلك فإنه طبقاً للروايات الزردشتية والإسلامية وأقوال غالبية المستشرقين يكون موطن زردشت في غربي إيران، ومن هناك هاجر شرقاً إلى بلخ حيث قام بنشر دعوته.

وفيما يتصل بحياة زردشت، فقد ورد في الأوستا فصل كامل عن حياته، ولكن هذا الفصل فقد، وقد حفظت أجزاء منه في الكتابات الدينية البهلوية، ويشوب الكثير مما ورد عن حياته وبخاصةً مولده الكثير من العجائب والخرافات، ومنها: أن أمه قد حملت به حملاً إلهياً مقدساً ذلك أن الملاك الذي كان يرعاه تسرب إلى نبات الهوما، وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن حين كان يقرب القرابين المقدسة، وفي ذلك الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسب، وتزوج الكاهن بالفتاة وامتزج الحبيبان الملاك والشعاع، فولد زرداشت من هذا المزيج، وتروي الأساطير أنه حين ولادته لم يبك مثل سائر الأطفال، ولكنه ضحك ففرت من حوله الأرواح الخبيثة، وفرحت الطبيعة بمقدمه فاهتزت الأشجار وانسابت الأنهار.

ولما بلغ سن العشرين انقطع عن الناس وخلا بنفسه يتفكر ويتأمل، وبدأ دعوته في عمر الثلاثين، وتروي القصص أنه لم يستطع أن يقنع أحد بدينه لمدة عشر سنوات وبنهاية العشر نجح في اجتذاب فرد واحد، ولكنه وبعد أن نجح في إقناع أحد ملوك إيران بدعوته أخذ فكره في الانتشار في إيران ثم في بعض أجزاء من الهند وآسيا الصغرى.

وكان الكتاب المقدس للدين الجديد هو مجموعة الكتب التي جمع فيها أصحاب زردشت وأتباعه أقواله وأدعيته، وسمى أتباعه المتأخرون هذه الكتب باسم

الاوستاق (الابستاق) وتجمع الروايات على أن ما وصلنا من صحف زردشت نزر يسير مما كُتب عنه، ويتجه بعض الباحثين إلى الإعتقاد بأن الموجود بين أيدينا من الأوستا القديمة هو ما يعادل ربعها فقط، وطبقاً لما ورد في كتاب «دنيكرت» (أحد الكتب البهلوية المشهورة) فإن الأوستا التي كانت موجودة في العصر الهخامنشي قد احترقت عندما أشعل الإسكندر المقدوني النيران في قصر الحكم، وحصل اليونانيون على نسخة أخرى لها وترجموا أقسامها العلمية الخاصة بالطب والنجوم إلى اللغة اليونانية وألقوها بعد ذلك في النار، وفي العصر الساساني تم جمع ما حذف من الآوستا من علوم الطب والفلسفة والنجوم والجغرافيا من اليونان والهند وأضيف إليها، وتم الاعتراف بهذه الأوستا رسمياً في عهد سابور الكبير (٣١٠ ـ ٣٧٩ م) واعتبرت قانوناً للدولة.

وتتكون الأوستا أو الابستاق حالياً من خمسة أجزاء هي: (١) يسناYasng وهي أهم الأجزاء، ومعناها العبادة والتسبيح والصلاة والعيد، وتتكون من ٧٢ فصلاً كل منها يسمى «ها» أو «هات» ويعتقد أن الفصول الأولى من اليسنا أكثرها قداسة لأن الزردشتيون يعتقدون أنها من نظم زردشت نفسه.

(٢) ويسبرد: ومعناها (كل السراة) وهو ليس كتاباً مستقلاً بذاته بل يمكن القول بأنه من ملحقات اليسنا، ويسمى كل فصل من فصوله (كرده) وتتراوح عدد فصوله ما بين ٢٧ و ٢٣ فصلاً.

(٣) ونديداد: ومعناه (قانون ضد الشياطين) وهو يتكون من ٢٢ فصلاً، وتتصل فصوله بخلق الأرض والأقاليم والمرض والقوانين المذهبية والأحكام الدينية.

(٤) يشتها: جمع كلمة «يشت» ومعناها العبادة والتسبيح فهي تسابيح للخالق وملائكته، وفيها العديد من الفقرات التي تشير إلى بعض الأحداث التاريخية التي صيغت في قالب أسطوري والموجود الآن منها واحد وعشرون يشتا تتراوح فيما بين الطويل والقصير.

(٥) خرده أوستا: أي الابتساق الصغير أو مختصر الابتساق، وهو كتاب للصلاة والأدعية الخاصة بكل وقت من اليوم والأيام المباركة من الشهر، والأعياد الدينية في العام، والمراسيم الأخرى وأوقات الصحة والمرض، وفصول هذا الكتاب وأدعيته مستخرجه من الأبتساق الكبير مع ادخال تعديل في أول وآخر كل منها يلائم الصلاة والدعاء في كل مناسبة، وقد زيد عدد هذه الأدعية فيما بعد.

وبمرور الزمن أصبحت فنون الأوستا من الغموض بحيث احتاجت إلى شرح وتوضيح ولم يكن في وسع كل زردشتي أن يفهمها، فظهرت العديد من الشروح والتفاسير المختلفة والتي منها:

(١) الزند: هو الشرح الأول للأوستا، وقد بديء في كتابته في القرن الأول الميلادي وهو ترجمة حرفية للأوستا مختلطة بالمتن، وكثيراً ما يخلط القدامى بينهما.

(٢) البازند: تفسير الزند وكتب بالبهلوية وقد ظهرت لغة البازند بعد الفتح العربي.

(٣) ايارده أوهى شرح شروح الأوستا فهي شرح للزند وسائر الشروح الأخرى، وهي أوضح التفاسير للاوستا.

ومن أهم خصائص دين زردشت، التثنية، أي الإعتقاد بوجود قوتين تسيطران على هذا العالم هما قوة الخير وقوة الشر، أو إله الخير الذي يمثله أهورا مزداً يقابله الشر الممثل في الشيطان أهريمين، وعالم الدنيا من خلق الله، ولكنْ الشيطان يفسد هذا الخلق ويتلفه ولولا هذا لكان عالمنا الدنيوي عالماً خيراً، لأنه من خلق إله الخير أن هذا العالم الدنيوي هو نقطة الإحتكاك بين الخير والشر ومسرح الحرب بينهما، ومحور هذا العالم هو الإنسان إلا أنه يؤمن أن الشيطان في النهاية سيهزم، وسيخسر إلى الأبد وبذلك تسود مملكة النور وهنا تقوم القيامة ويبعث الناس، ويكافأ الخير، ويعاقب المذنب.

وتؤمن الزردشتيه بالبعث، وكذلك بالحساب، ويكون حساب الإنسان يوم البعث منوطاً بما قدمه في الدنيا من خير أو شر.

وكان أهورا مزدا إله الإيرانيين القدماء، ومعنى اسمه «الاله الحكيم» وأهم صفاته العلم والحكمة، وهو حارس يقظ، يحمي ويقي ويكافيء ويعاقب، وهو أب لكل شيء حسن وهو خالقه، وعرشه في السماء في عالم النور والخلود، ويوجد حوله عدد من الملائكة يتلقون أوامره وينفذونها.

ويقف أمام عرش أهورا مزدا عدد من الملائكة الكبار يتلقون أوامره وينفذونها، وهؤلاء الملائكة الكبار شبيهون بالوزراء، والإسم الإيراني الذي أطلق عليهم يفيد الكائنات المقدسة الخالدة، وعدد هؤلاء الملائكة ستة وتتكون منهم مع أهورا مزدا قيادة مملكة النور وهم ليسوا كائنات حية، وإنما هم أسماء تعبر عن مثل أو تصور فضائل مجردة مطلقة، وهذه الفضائل هي: (١) الفكر الخير (٢) الصواب (٣) الكون أولئك المرتجى، (٤) التقوى الخيرة، (٥) الصحة، (٦) الخلود.

وحسب الفكر الديني الزردشتي، فلقد كان أهور مزدا هو خالقها وقد أوجدها لتعاونه في عمله، وكل مالها من قوة خالقة أو منظمة يلائم وضعها بوصفها عمالاً عند أهورا مزدا الذي يُملي إرادته ومشيئته عن طريقها، وهو يكلفها بكثير من الأعمال الدنيا، فالفكر الخير موكل برعاية الحيوانات النافعة، والصواب الأعظم موكل برعاية المعادن، والتقوى الخيرة الالهة الأرض، والصحة المنجية موكله برعاية الماء، وأما الخلود فموكل برعاية النباتات.

ويخصص لكل من هذه الملائكة شهر لتعظيمه، كما أن لكل من هذه الملائكة نوعاً من الزهور يناسبه ويقدم أليه كهدايا، فالياسمين يهدي لملك الفكر والخير. ويلاحظ أنه حسب الفكر الزردشتى كان لكل من هذه الملائكة شيطان يعارضه ولكن كل ملك سوف ينتصر على شيطانه، وذلك حينما تقوم القيامة ويتم الحساب[١].

---

(١) أحمد أمين سليم، المرجع السابق، صفحات ٣٤٣ ـ ٣٤٧.

خامساً: شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

يتضح من النقوش التي عثر عليها إن العقائد والحياة الدينية في جنوب الجزيرة كانت متماثلة على اختلاف الأدوار والبيئات. فقد كان القمر هو المعبود الرئيسي مع اختلاف في تسميته وتطور في اعتباره ثم يأتي بعده الشمس ثم الزهرة على اختلاف كذلك في تسميتهما. وكان لكل شعب أو قبيلة إله قومي خاص يعتبرونه حامياً لهم ورابطة تربط بين وحداتهم. وكان لهم إلى هذا وذاك آلهة ثانوية أخرى. وكانوا يصنعون لآلهتهم تماثيل يضعونها في معابدهم ليؤدوا عندها طقوسهم ويقربوا قرابينهم[١].

ولقد كانت المعبودات الرئيسية الثلاثة في الدولة المعينية تسمى «ود» و «نكرح» و «عشتر» بالتوالي وكان القمر مذكراً والشمس مؤنثة والأول بمثابة زوج للثانية وكانت الزهرة تعتبر ابنة لهما. ولقد عثر على شاهد قبر امرأة معينية عليه صورة الميتة ورمز الزهرة في وضع توسلي لإنزال الويل على من يتجاسر على تغيير الحجر عن موضعه مما قد يكون فيه دلالة ما على ما قلناه[٢].

وكان الشعب المعيني يسمى نفسه أبناء ود ويعتبر هذا المعبود إلهه القومي وحاميه والرابطة التي تجمع بين وحداته وفروعه.

ولقد كان ود في أثناء قوة الدولة المعينية وسلطانها الشامل إلهاً رئيسياً عاماً لجميع الإمارات والمناطق الخاضعة لها، فمن المحتمل أنه كان إله المعينيين القومي قبل أن تصبح السيادة الشاملة لهم ثم ظل ذلك ملحوظاً عندهم مع ارتفاع منزلته وعمومية عبادته.

ولقد قرىء في نقش معيني عبارات «ذات نشقم» و «معبد يثعم» واسم «يثل»

---

(١) محمد عزة دروزة، المرجع السابق. صفحات ٨٦ ـ ١٠٧.

(٢) شوقي ضيف: العصر الجاهلي. صفحة ٨٩.

قارن: محمد عبد المعيد خان. الأساطير العربية قبل الإسلام. صفحة ٥٥.

في جملة فيها تعداد لآلهه معين وليس فيها بيان ما. فأما أن تكون أسماء مدن فيها معابد لآلهتهم المعروفة وإما أن تكون أسماء معبودات ثانوية ظلت هويتها ومركزها غامضاً.

وقد كانت أسماء الآلهة الرئيسية عند الحضر موتيين نفسها عند المعينيين. غير أنهم كان لهم إله قومي حامياً لهم يسمونه «سين» وكانوا يسمون أنفسهم «أبناء سين»، وقد عثر على نقش حضر موتى سجل فيه صاحبه «إن نفسه وروحه ومقتنياته ونور عينيه وما يفكر به في قلبه هو «السين إله حضرموت». وقد وجدت آثار معبد ضخم لسين في خرائب مدينة حضر موتية اسمها مذب. وقد قرىء في بعض النقوش جملة «سين ذمذمب» أي «سين مدينة مذب» ولعلها كانت تشير إلى هذا المعبد.

وبعض النقوش يفيد أن إسم «سين» كان يطلق على القمر ويعتبر المعبود الرئيسي الأول في فترة من الفترات. ولعل هذا كان حينما غدت حضرموت قوية متمتعة بسيادة شاملة نوعاً ما كما سبق القول[1].

وقد قرىء في نقوش حضرموتية أسماء آلهين آخرين وهما «ذات حشو» و «ذات صميم» دون بيان عن هويتهما ومركزهما. وكلمة «ذات» كانت تعني وصفاً للألهة الرئيسية. وليس من المستبعد أن تكون هنا من هذا القبيل.

وقد قرىء في نقش حضر موتي على لوح نحاسي موجود اليوم في المتحف البريطاني أسماء سين وعلم وعشتر. وقد ورد في نقش حضر موتي آخر جملة «سين ذ علم وسين ذ مشور وسين ذ علم ذ علق احن» وقد فسر جواد على عبارة «سين ذ علم» بمعنى سين العالم أو العليم أي اعتبر العبارة وصفية وليست اسم معبود جديد. وقال أن معنى الجملة «معبد سين العليم في مدن مشور وعلق واحن»[2].

---

(١) رشيد الناضوري. المدخل في التطور للفكر الديني. صفحة ١١٣.
جواد علي. المرجع السابق. الجزء الخامس. صفحة ٢٢.
(٢) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الخامس. صفحات ١٢٠ ـ ١٢٣.

وقد قرىء في نقش حضر موتي اسم «حول» مع أسماء «سين» و «عشتر» و «شمس»، دون بيان ما، وهذا النقش سمى الآلهة الشمس بأسمها العربي بديلاً عن اسم نكرح المعيني.

ولقد سمي القتبانيون القمر «ودا» كما فعل المعينيون والحضر موتيون وسموا الشمس عشتر على ما تفيده نقوشهم. وقد كان لهم إلى هذين المعبودين معبود قومي اسمه عم ويعتبرونه حاميهم ويسمون أنفسهم «أولاد عم». وكان لعم معابد في المدن ينسب إليها مثل «عم ذو شقرن» و «عم ذو ريمت» «وعم ذو يسن» أي معابد عم في مدن شقرن وريمت ويسرن.

وقد قرىء في نقوش قتبانية اسم آله آخر هو «انبي». وفي إحداها أنه دون تقرباً للاله انبى ودعاء له ليمن على الأرض بالخير والبركات مما يمكن أن يدلل على أنه كان إله المطر والخصب أو أنه كان يشغل المركز الذي كانت الزهرة تشغله عند المعينيين وهو على هذا الاحتمال ثالث الثالوث.

وقد قرىء في نقوش قتبانية عبارات «حوكم وذات صفتم وذات ظهران وذات سنطم وذات رحبن» وقد خمن الاثريون أن جملتي ذات ظهران وذات رحبن هما صفتان توصف بهما الشمس ولم نرهم يعلقون على العبارتين الثانيتين. ولا يمكن القطع بما إذا كانتا جملتين وصفيتين أو إسمين لمعبودين ثانويين من معبودات القتبانيين.

وقد قرىء في نقش لا مرأة أو سانية جملة «معبد نعمان» دون بيان آخر. ولا يمكن الجزم بما إذا كانت نعمان تعني إسم المدينة التي فيها المعبد أو إسم أوساني لعله المعبود القومي للأوسانيين.

والسبئيون كانوا يسمون معبودهم القومي باسم «المقه» ولما صار لهم السلطان الشامل صار المقه ألهاً عاماً للدولة مع بقائه معبودهم القومي على ما تفيده نقوشهم.

وقد كان اسم المقه يرمز إلى القمر. ولا ندري هل كان هذا قبل أن يصبح

معبوداً عاماً للدولة أو بعد ذلك[1].

وقد قرىء في نقوش سبئية عبارات «عشتر وهوبس ذات حميم بالإضافة إلى المقه». ويخمن الأثريون أن جملة ذات حميم وصف للشمس، وأن السبئيين كانوا يصفونها كذلك بأوصاف ذات بعدن وذات خضرن وذات بران. وهكذا يكون ثالوث القمر والشمس والزهرة قد استمر في عهد الدولة السبئية التي صارت شاملة السلطان بعد الدولة المعينية مع تبديل في التسمية للشمس والقمر[2]. ولا تذكر النقوش شيئاً عن هوية هوبس، مع أنها ذكرته مراراً. ولعله من الآلهة الثانويين. ونقوش السبئيين تفيد أنهم كانوا يتوسلون بعشتر في قضاء حاجاتهم ومطالبهم وهو ما كان يفعله المعينيون قبلهم.

وفي العهود الأخيرة من الدولة السبئية ظهرت أسماء معبودات جديدة وتدنت منزلة المقة. ومن الأسماء الجديدة التي ظهرت «ذو سموى» أي رب السماء و تالب ريم» و «نتف بعلة ذي غفران» ويستفاد من النقوش أن «تالب ريم» كان معبود بني مرثد القومي وحاميهم فتألق نجمه حينما صار العرش السبئي لاسرة منهم. وقد قرىء في نقوش عديدة نسبه تالب ريم إلى المدن مثل «تالب ريام بعل مبين» و «تالب ريم بعل شعرن» و «تالب ريم بعل خضعتن» و «تالب ريم بعل مدثن» و تالب ريم بعل كبدم». وقد وصف في نقش بوصف شيحهمو أي حاميهم وراعيهم.

أما تسمية «ذ سموى» فمن المحتمل أن يكون أريد بها القمر أو الشمس وإن كانت تحمل معنى أبعد من ذلك وبكلمة أخرى تحمل معنى القوة التي وراء الشمس والقمر. وفي هذا تطور مهم في العقيدة الدينية.

وليس في النقوش ما يساعد على معرفة هوية ومركز نتف ولكن النقش الذي ذكرت فيه قبلها مباشرة كلمة «تمسهمو» ولا ندرى هل يعني أن النتف هي اسم آخر

---

(١) ديتلف نلسون. المرجع السابق. صفحة ٢٠٩.

(٢) المرجع السابق. نفس الموضع.
قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الخامس. صفحة ١٢١.

للشمس أم أنها وصفت بالشمس[1].

وهناك نقوش تفيد أن عبادة وذكر ذي سموى كانت محصورة في منطقة معينة، وكان ينسب إليه مدن معينة مثل «ذ سموى آله امرم» و «ذ سموى بعل بين ظعن» و «ذ سموى بعل وترم». فمن المحتمل أن يكون «ذى سموى» في البدء إلهاً قومياً لإحدى القبائل ثم اتسعت دائرته ومعناه.

وهناك نقوش سبئية متأخرة منها ما هو قبيل الميلاد ومنها ما هو بعده بقليل ذكر فيها أسماء المقه وعشتر وهو بس وذات بعدان وذي سموى معاً، وقرىء في بعضهم اسم الشمس. حيث يدل هذا على أن الآلهة السبئية التي كانت ذات مكانة عالية في عهد السبئيين الأول لم تتوار بالمرة مع تألق نجم تالب ريام ثم ذ سموى في الوقت نفسه.

وهناك نقوش عديدة تفيد أنه كان في المدينة الواحدة معابد متعددة للآلهة المتعددة، وأن الملوك والأغنياء كانوا يهتمون كثيراً بإنشاء المعابد وترميمها وتجديدها وتزيينها[2].

وتفيد النقوش أنه كان للمعبودات مكانة عالية في أذهان اليمنيين بحيث يذكرونها ويلحظونها ويتقربون إليها في كل حادث ومناسبة وعمل يربطون بينها وبين كل مناسبة وعمل وحادث غير أنه ليس فيها ما يساعد على معرفة أشكال الطقوس التي كانوا يؤدونها لهم. وليس فيها كذلك ما يدل على أنه كان عندهم فكرة عن حياة أخرى وثواب وعقاب في العالم الآخر. وكل ما تفيده هو أنهم كانوا يعبدون معبوداتهم ويتقربون إليها ويذكرونها في مختلف المناسبات ويربطون بينها وبين كل عمل وحادث لشؤونهم المختلفة في الحياة الدنيا وبكلمة أخرى لضمان مطالبهم وقضاء حوائجهم وتحقيق آمالهم ودفع الشر والأذى عنهم وجلب الخير والنفع

---

(١) محمد عزة دروزة. المرجع السابق. صفحات ٨٤ ـ ٨٦.
(٢) المرجع السابق، صفحات ٨٦ ـ ٩١.

لأنفسهم. ويلاحظ هذا في مختلف النقوش المعينية والحضر موتية والقتبانية والسبئية على السواء وبالنسبة لمختلف الأدوار.

ولقد كان للكهانة وأوقاف المعابد وضرائبها حيز مهم في المجتمع اليمني على ما تفيده النقوش وكان الكهان نتيجة لذلك كأنهم دولة ضمن دولة بما كان يؤدي إليهم من ضرائب وموارد وما كانوا يسهمون فيه من أعمال ومشاريع عامة وإقتصادية.

أما ظاهرة الملوك المكاربة فهي تمثل الكهانة في ذروتها العليا حيث كان الملوك المعينيون والسبئيون والقتبانيون والحضر موتيون في البدء يتلقبون بلقب مكرب الذي كان يحمل معنى همزة الوصل فيه الرئاسة بين الآلهة والناس. وكثير منهم احتفظوا بلقب المكرب مع تلقبهم بلقب الملك لهذه الغاية[١].

هذا، ومن الجدير بالذكر أن القمر والشمس والزهرة كانت معبودات رئيسية في العراق والشام ومصر وسائر أنحاء الجزيرة في مختلف أدوار التاريخ القديم. وكانت الموجات العربية في العراق تسمى القمر سين والشمس شمشاً والزهرة عشتار، وكانت الموجات العربية في الشام تسمى الزهرة عشتروت أي أنها كانت تتماثل بالتسمية وبالعبادة مع جنوب الجزيرة مما يسوغ القول أن العبادة السماوية أصيلة في الجنس العربي وإن وحدة الفكرة الدينية قائمة بين فروعه وإن هذا مما يؤيد وحده الاورومه بين سكان الجزيرة ومهاجرها.

ولقد ذهب بعض الباحثين إلى أن عبادة القمر والشمس أتت إلى اليمن من بابل مع أن المفترض أن يكون العكس هو الصحيح ما دام البابليون هم موجة عربية الجنس تمت إلى جزيرة العرب، وعبادة المشاهد السماوية أشبه أن تكون من وحي طبيعة الجزيرة وسمائها ونجومها ولياليها كما هو ظاهر. وليس معنى تأخر دولة معين في البروز عن دول العراق الأولى أنه لم يكن في اليمن دول قبلها ولم تكن عبادة سماوية في المهد الذي خرجت منه تلك الموجة كما لا يخفى. وللقمر خاصة أثر

---

(١) المرجع السابق. صفحات ٩١ ـ ٩٣.

عظيم في حياة الجزيرة العربية الشديدة الحرارة حيث يكون لليل وللقمر الذي ينير ظلماته الأثر الأكبر في النفوس ولعل هذا هو سر جعل القمر المعبود الأكبر. وقد قال بعض الباحثين أن العربية الجنوبية أرسلت موجات متعاقبة من البشر سلكت الطرق البرية والبحرية حتى وصلت إلى المناطق التي وصلت إليها واستقرت فيها. وهاجرت وقد حملت معها كل ما تملكه من أشياء ثمينة وكان فيما حملته الاله القمر[1].

ويخطر بالبال في صدد العبادة السماوية والتعددية في اليمن ثم في مهاجر العرب الأخرى في التاريخ القديم أن العربي لا يعقل أن يكون قد أعتقد أن القمر والشمس والزهرة وغيرها من مشاهد السماء هي الخالقة المدبرة للكون. لأن ما اكتشف لهذا الجنس من مآثر في اليمن ومهاجرها منذ أقدم الأزمنة يدل على أنه لم يكن بهذا القدر من السذاجة الذي يجعله يعتقد أن هذه المشاهد الكونية هي خالقة الكون ومدبرته، وأن كل ما في الأمر أنه كان يراها كعيون لقوة خفية عظيمة تكمن في الكون وتتجلى في الدرجة الأولى في السماء، وإنه كان يتعبد للقمر والشمس والنجوم كوسيلة إلى ما وراءها، لأن الذهن البشري في أدوار حضارته الأولى كان ينصرف دوماً إلى المشاهد المرئية ويتأثر بالمشاهد السماوية.

ومثل هذا يصح أن يقال بالنسبة للأصنام والأوثان والمعبودات المادية التي تتخذها العرب حيث لم تكن إلا رموزاً وهياكل مادية في الأرض للقوى الخفية السماوية ليؤدوا عندها طقوسهم ويذبحوا قرابينهم جلباً لما يتوخونه من منافع ومطالب ودفعاً لما يخشونه من شرور وأضرار. وتعدد الآلهة السماوية والمادية مرده في الغالب تعدد المطالب والحاجات واعتقاد العرب بضرورة جعل وسيلة خاصة لكل مطلب وحاجة كما أن فيه ما يعود إلى شعور كل فريق أو عشيرة أو منطقة أو مدينة إلى حام خاص يحميهم ويكون لهم ملجأ ومرجعاً مع ملاحظة القوة الخفية العظمى وراء

---

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الأول. صفحات ١٦٠ ـ ١٦١.
قارن: محمد عزة دروزة. المرجع السابق. صفحات ٨٦ ـ ٩١.

ذلك كله[1] .

ولعل مما له دلالة على هذا كلمة عربية الجنس كانت منذ القديم في مختلف اللهجات العربية القديمة بمعنى الاله وهي كلمة «ايل» التي تعني الرب أو الاله في المعينية والسبئية والبابلية والآرامية والكنعانية والسريانية والعبرانية والتي يصح أن يقال أنها الأصل الذي تطورت عنه كلمة «الاله» أو «الله» في العربية الفصحى حيث وجدت هذه الكلمة بهذا المعنى في الآثار البابلية والكنعانية والفينيقية والسريانية والآرامية والعبرانية كما وجدت في السبئية والقتبانية والحضر موتية الخ. فالذي يتبادر إلى الذهن أن هذه الوحدة في اللفظ والمعنى لا بد من أنها تعني وحدة عامة في الفكرة وتقوم دليلاً على وحدة الربوبية العليا عند الناطقين بها. ويجدر بالذكر أن هذه الكلمة كانت تلحق بالأسماء في اللغات المذكورة جميعها ليكون فيها دلالة على الاعتراف بعبودية أصحابها للاله[2] .

سادساً: اليونان

يبدو أن الاختلاف الأساسي بين الديانة القديمة والعقائد السماوية أن هذه العقائد تتجاوز حدود هذا الكون، إذ أنها تبشر من اعتنقها بالسعادة الأبدية في العالم الآخر أو تهدده بالعقاب الصارم، على حين أن الديانة اليونانية كانت أكثر إرتباطاً بمجريات الحياة اليومية، فلم تكن الآلهة اليونانية أسيرة في هياكلها أو سماواتها أو مملكتها السفلى، بل كانت تحيا في طرقات المدينة وفي بيوت الناس وفي حقول الكروم والزيتون، ومع الأخذ في الاعتبار كل أحداث الحياة اليومية كانت الآلهة ماثلة أمام الفرد اليوناني العادي في كل مسالك حياته بوسعه دعوتها في أية لحظة

---

(١) محمد عبد المعيد خان. المرجع السابق. صفحات ١٠٧ ـ ١١١.
قارن: السيد عبد العزيز سالم. المرجع السابق. صفحة ٤٠٩.

(٢) محمد عزة دروزة. المرجع السابق. صفحات ٩٤ ـ ٩٥.
ديتلف نسلون. المرجع السابق. صفحة ٢٠٩.
قارن: السيد عبد العزيز سالم. المرجع السابق. صفحات ٤٠٩ ـ ٤١٠.

لتكون شاهداً على قسم أو لحمايته من خطر معين أو لشفاء مرض خطير أو لتبارك عملا ما، ومن الطبيعي في مثل هذه الحالات أن يراعى الفرد اليوناني قواعد خاصة في تعامله مع هذه الآلهة نظراً لمرتبتها السامية عند مقارنتها بالبشر، لكن هذه القواعد كانت بسيطة خالية من التعقيد والرهبة، فكان اليوناني القديم يتعامل مع الهته ببساطة شديدة لا تخلو من الاجلال.

وربما كان لانعدام فكرة العالم الآخر في الديانة اليونانية بالشكل الذي وردت به مثلاً في الديانة المصرية القديمة أبلغ الأثر على الطريقة التي اختار بها اليوناني القديم الهته التي تعبد لها، فقد اعترف هذا اليوناني ببساطة بألوهية عدد من القوى مثل أورانوس (السماء) أو هاديس (ملك العالم السفلى غير المرئي) أو الشمس والقمر والنجوم إلا أنه لم يتعبد لها أو يقدم القرابين، فهذه الكائنات لا تبدى أي اهتمام بالبشر ومن ثم فلا حاجة بالبشر أن يهتموا بها، ويتضح هذا التناقض عندما يبدأ نفس الفرد اليوناني العادي الذي لا يهتم بأورانوس أو هاديس في التعامل مع «زيوس» اله الطقس أو (كورى) الهة المحاصيل أو (آريس) اله الحرب أو غيرهم من الالهة التي تتدخل وتتحكم في أحيان كثيرة في حياة البشر ومن ثم فلا بد في المقابل بهؤلاء البشر من تحديد طريقة فعالة وناجحة في التعامل مع هذه الالهة والتي تمثلت في عبادتهم وتقديم القرابين لهم لكسبهم واستدرار عطفهم أو على الأقل لتلافي شرورهم وأحياناً عبثهم[١].

ومن الواضح أن العناصر المختلفة التي أسهمت في تكوين الشعب اليوناني قد أثرت بالتالي على التكوين الكلي المعقد للديانة اليونانية في العصر الكلاسيكي فقد انقسمت الآلهة اليونانية إلى ثلاث طبقات الأولى منهم وهي الهة السماء التي سكنت جبل أوليمبوس في تساليا والثانية الهة الأرض والثالثة آلهة البحر، وتفسر إحدى

---

(١) هـ . روز الديانة اليونانية القديمة . صفحات ٨ ـ ١٤ .

CF. jane Harrison, Prolegomena to the study of Greek Religion, pp. 257 - 362. p. E, Easterling, J. V. Muir, Greek Religion and society pp. 4 - 32.

الأساطير القديمة ذلك بأنه عندما انتهت سيطرة الإله القديم كرونوس على العالم اقترع أبناؤه الثلاثة على اقتسام مملكته، فكانت السماء من نصيب زيوس والعالم السفلي من نصيب هاديس أما البحر فكان من نصيب بوسيدون. ومن المحتمل أن ألهة جبل أوليمبوس دخلوا إلى اليونان مع الغزاة الآخيين مع ملاحظة أن بعضهم كان موجوداً في منطقة البلقان من قبل، أي كانوا أقدم من الهة الآخيين الغزاة مثل هيرا، ورغم هذا نجد أن هوميروس قد أدمجهم في أسرة واحدة أو مجمع الهي واحد (بانثيون)[1].أما الهة الأرض فيبدوا أنهم كانوا الهة أهل البلاد الأصليين فهي مرحلة ما قبل دخول الآخيين لليونان.

ومع ظهور دولة المدينة وتحويلها لتصبح الوحدة السياسية والاجتماعية المعروفة لدى اليونانيين كان ولا بد أن يحدث تحول مواز لهذا في الطقوس الدينية البسيطة، فلم تعد مهمة الالهة حماية أو رعاية مجتمع زراعي بدائي وإنما أصبحت مسؤولة عن دولة واسعة معقدة البناء إلى حد ما. وعندما ظهر أن الآلهة القديمة أصبحت عاجزة عن القيام بهذا الدور كان من الحتمي أن يحدث الانهيار المتوقع في كفاءتها ومن ثم في عبادتها، ويتضح هذا تماماً في كتابات الشاعر المسرحي الكوميدي أريستوفانيس.

سابعاً: الرومان

رغم صعوبة الحديث عن الدين وما يحويه من أمور شائكة وخطر إطلاق تعميم أحكام قد لا تصدق كلياً أو جزئياً نظراً للتباين الشديد بين أقسام الدولة الرومانية

---

(١) وكان عدد الهة هذا المجتمع (البانثيون) اثني عشر هم: زيوس كبير الآلهة، هيرا أخت زيوس وزوجته الشرعية، بوسيدون شقيق زيوس واله البحار، هاديس شقيق زيوس واله العالم السفلى، ديميترا شقيقة زيوس والهة الأرض والخصوبة، اثينا ابنة زيوس والهة الحكمة، أبو للو ابن لزيوس، واله الموسيقى والضوء، ارتميس الهة الغابات والليل والقمر وابنة لزيوس، آريس ابن زيوس واله الحرب، هيفيستوس اله النار والحدادة وابن هيرا وحدها، هيرمس ابن زيوس ورسول الالهة، افروديتي الهة الحب والجمال والجنس وولدت من زبد البحر.

واتساعها مما جعلها تحوي العديد من الثقافات وبالتالي المواقف الدينية المتباينة إلا أن هناك بعض القواعد أو الظواهر التي تشترك فيها أغلب الشعوب وهي اعتقادها في الغالب في آلهة غير مرئية عظيمة القوة أبدية خيرة، ولما كان الإنسان في حاجة إلى معونتها الدائمة في مجريات حياته اليومية فلا بد له وأن ينال رضائها عليه بتكريمها. بالتعبد لها بانتظام وإقامة الشعائر والطقوس الخاصة بها وتقديم القرابين لها. أي أنها بشكل من الأشكال محاولة من الإنسان للتوافق مع (أو تطويع إن أمكن) الظروف الطبيعية المحيطة به وتجنيدها لخدمة أغراضه الحياتية.

وفي خلال فترة توسع الامبراطورية الرومانية تغلغلت التأثيرات الإغريقية في الديانة الرومانية، وأخذ هذا التغلغل مظهرين واضحين تماماً هما: تشبيه الالهة الرومانية بالالهة الاغريقية المتماثلة في الخصائص، أما المظهر الثاني فكان استعمال الأساطير الدينية الاغريقية، بكثرة بعد مزجها بالروح والجو الروماني. وتدريجياً بدأ الرومان يعترفون رسمياً بمجموعة من الآلهة تماثل الالهة الاغريقية الاثنى عشر التي كانت تشكل مجمع الهة الأوليمبوس. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هي أن الالهة ذات الأصل الاغريقي خلفت سريعاً الالهة اللاتينية الصغرى وأن الآلهة الرومانية غير المشخصة اتخذت أشكالاً آدمية مثل الآلهة الاغريقية، مما أدى إلى كثرة الطلب على إنتاج تماثيل للآلهة الرومانية على غرار تماثيل الالهة الاغريقية.

ورغم هذا فقد تميزت السياسة العامة للطبقة الحاكمة في روما بمحاولة الحد من التأثيرات الأجنبية على العبادة الرومانية، وإذا كانت هذه السياسة تدلل على حرص السناتو على الحفاظ على اتزان الديانة الرومانية التقليدية، فإن هذا المجلس كان يستغل الأعياد الدينية بالتأكيد لخدمة أهدافه السياسية، والدليل على ذلك أن هذه الأعياد قد تحولت إلى حفلات ترفيهية في محاولة لكسب رضاء الجماهير وتدعيماً لنفوذ الطبقة الحاكمة وحفاظاً على مكانتها[1].

---

(١) ابراهيم نصحي، المرجع السابق، الجزء الأول، صفحات ٤٢٥ ـ ٤٢٧.

وكان بوسع الجميع بل وواجبهم أن يأخذوا بنصيب في الطقوس الدينية التي تقام في الأعياد الكبرى، وكانت العبرة بالاشتراك الفعلي في أداء الطقوس، فلم يكن هناك محل للدين الذي يقوم على اتباع نواميس معروفة أو تلاوة قوانين للإيمان، إذ أن مرحلة الوصل بين اللاهوت والأخلاق لم تكن قد بدأت بعد، فكان واجب المواطن الروماني وعمله الدال على صدق إيمانه هو أن ينضم للمواكب الدينية ويشترك في تكريم الآلهة وتقديم القرابين لها.

ورغم هذا الشكل الخارجي المتكامل للديانة الرومانية ـ والتي يمكننا الآن أن نطلق عليها لقب الديانة الرسمية أو ديانة الدولة ـ إلا أن الفرد الروماني العادي كان لا يزال يمارس معتقداته الدينية التي ورثها عن آبائه وأجداده من عبادة للآلهة «فستيا» وهي النار مجسدة في الموقد داخل المنزل وهي رمز للبيت والأسرة والحياة المنزلية الوادعة المطمئنة. ولا يعني هذا أنه حدث تنافس بين هذين النوعين من الديانة إذ كان من السهل على المنطق الديني القديم التوفيق بين أكثر من اله وأكثر من عبادة.

بقيت عقيدة أخيرة وهي «عبادة الأباطرة» ويقصد بها تكريم الأباطرة بعد موتهم وضمهم لصفوف الالهة رسمياً بواسطة مجلس الشيوخ الروماني وهو السلطة الدينية المختصة وذلك لعمل عظيم أنجزوه أو إصلاح جليل أو ما شابه ذلك. وعبادة الأباطرة هي عقيدة مضللة إذ لم يحدث كما قد يتبادر إلى الذهن أن أقيمت شعائر العبادة للامبراطور إبان حكمه على اعتبار أنه اله وإنما دائماً بعد موته[١].

وفي شخص الامبراطور كانت تتجسد قوة روما الأبدية (بشكل مؤقت) وسطوتها وجبروتها وأيضاً وحدة هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف المختلفة بل والمتباينة النزعات والاتجاهات مما جعله رمزاً لروما ووحدة امبراطوريتها من يعتدي عليه فهو يعتدي على وحدة الدولة.

ويجرنا هذا إلى الحديث عن ظهور المسيحية كديانة سماوية جديدة وبدء

(١) تشارلز وورث. المرجع السابق. صفحات ١٦٠ وما بعدها.

انتشارها في العالم الروماني وموقف أباطرة الرومان منها. فقد أخذ الرومان موقفاً عدائياً من الديانة الجديدة مما قد يوحي بتعصبهم الديني وتخوفهم من الديانة الجديدة. وهذا الرأي لا يحمل من الصحة قدراً كبيراً إذ أن الرومان قد عرفوا بالتسامح الديني وتقبلهم للعديد من الالهة حتى أن عبادة ايزيس وسيرابيس المصريان. قد انتشرت في روما نفسها وأقيم معبد لها في المدينة، وإنما سر هذا الموقف يكمن في طبيعة الديانة الجديدة التي ترفض أية عبادة أخرى غير الإله الجديد (وهو الله)، مما يعني بالضرورة هدم فكرة عبادة الامبراطور رمز وحدة الامبراطورية الرومانية وبالتالي يتحلل الرباط الذي كان يجمع بين أجزاء الامبراطورية الرومانية المتنافرة عن طريق اشتراكها في عبادة واحدة (ومن المعروف أن العقيدة الدينية هي أقوى سلاح يمكن عن طريقه تحقيق وحدة مجموعة من الشعوب) أي أن هذه العبادة كانت تهدد الكيان السياسي للامبراطورية الرومانية نفسها ومن هنا أتت الروح العدائية ضدها والتي استمرت حتى اعترف الامبراطور قسطنطين الأول بالمسيحية واعتنقها وأعلنها الديانة ديانة ضمن الديانات الرسمية للدولة في بدايات القرن الرابع الميلادي[1].

---

(١) عن الموضوع بشكل عام راجع:

M. L Clarke, The Roman Mind. p. 115 ff.

CF. Jerome Carcopino, op, cit, p. 121 ff.

الفصل الثالث
ديانات الأسرار والعبادات الغامضة
في العالم اليوناني الروماني

في تعريف الدين ربما كان من الأفضل الإبتعاد عن المناهج النفسية الإستنباطية التي استعملها «هربرت سبنسر» أو «ماكس موللر»، أو المنهج الحدسي الذي استعمله «هنري برجسون» لعدم جدواهما في إخراج تعريف محدد مقنع، وربما كان المنهج الموضوعي المقارن أفضل، إذ يقوم على المقارنة بين الأديان لتعيين عناصرها العامة. وبمثل هذا المنهج نصل إلى تعريفات «جيمس فريزر» والذي حدد الدين بأنه إحساس أن هناك نفساً خفية تعترف النفس البشرية بما لها من سلطان على العالم وعليها، ولذا يجب أن تكون على اتصال دائم بها ما أمكن.

لكن رأي «فريزر» ليس دقيقاً كما يرى «إميل دوركايم» لأن من الممكن ـ في رأي دوركايم ـ ظهور دين بدون ظهور فكرة الإله كما في الزرادشتية، بل ويزيد بأن هناك بعض الديانات لم تتحقق فيها فكرة الدين مثل البوذية التي هي في جوهرها أخلاق بغير دين. ويقسم «دوركايم» «الظواهر» الدينية إلى قسمين:

ـ العقائد التي هي حالة فكرية تتعامل مع الأفكار، والتصورات التي تعبر عن طبيعة الأشياء المقدسة وما بينها من علاقات.

ـ العبادات وهي نماذج وطرز من الأفعال الجسمية وغير الجسمية يمارسها الإنسان حيال الأشياء المقدسة[1].

---

(١) على سامي النشار، نشأة الدين، النظريات التطورية والمؤلهة دار الثقافة، الاسكندرية ١٩٤٩،=

ويبدو أن الإختلاف الأساسي بين الديانات اليونانية والرومانية القديمة والعقائد الدينية السماوية يكمن في أن الأخيرة تتجاوز حدود هذا الكون، إذ أنها تبشر من اعتنقها بالسعادة الأبدية في العالم الآخر أو تهدده بالعقاب الصارم طبقاً لأعماله، على حين أن الديانة اليونانية القديمة على سبيل المثال كانت أكثر إرتباطاً بمجريات الحياة اليومية، فلم تكن الآلهة اليونانية أسيرة في هياكلها أو سماواتها أو مملكتها السفلى، بل كانت تحيا في طرقات المدينة وفي بيوت الناس وفي حقول الكروم والزيتون، ومع الأخذ في الاعتبار كل أحداث الحياة اليومية، فقد كانت الآلهة ماثلة أمام الفرد اليوناني العادي في كل مسالك حياته، بوسعه دعوتها في أية لحظة لتكون شاهداً على قسم، أو لحمايته من خطر معين، أو لشفاء مرض خطير، أو لتبارك عملاً ما.

ومن الطبيعي في مثل هذه الحالات أن يراعى الفرد اليوناني أو الروماني العادي قواعد خاصة في تعامله مع هذه الآلهة نظراً لمرتبتها السامية، لكن هذه القواعد كانت بسيطة خالية من التعقيد والرهبة، فكان يتعامل مع الهته ببساطة شديدة لكنها لا تخلو

= صفحات ٢١ ـ ٢٨.

والدين ـ في اللغة ـ هو الجزاء، وهو الله، وهو الخضوع والطاعة، وهو العبادة والورع، وهو إسم لجميع ما يُتعبد به لله عز وجل.

انظر: الفيروز آبادي: القاموس المحيط، القاهرة ١٩٥٢، الجزء الرابع، صفحات ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

والدين ـ في نظر الإسلاميين ـ هو وضع إلهي يرشد إلى الحق من الاعتقادات وإلى الخير من السلوك والمعاملات.

راجع: محمد عبد الله دراز، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، القاهرة ١٩٦٩ صفحات ٢٥ ـ ٢٦.

هذا رغم أن القرآن الكريم إنما يسمى معتقدات الآخرين ديناً، حتى وإن كان هذا الدين هو الكفر ذاته، حيث يقول الله تعالى: (قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دينِ)
سورة الكافرون: آيات: ١ ـ ٦.

من الإجلال.

وربما كان لانعدام فكرة العالم الآخر في الديانات اليونانية والرومانية بالشكل الذي وردت به مثلا في الديانة المصرية القديمة أبلغ الأثر على الطريقة التي اختار بها اليوناني أو الروماني القديم الهته التي تعبد لها، فقد اعترف ببساطة بألوهية عدد من القوى، مثل أورانوس (السماء) أو هاديس (ملك العالم السفلي غير المرئي). أو الشمس أو القمر والنجوم إلا أنه لم يتعبد لها أو يقدم القرابين، فهذه الكائنات لا تبدى أي اهتمام بالبشر، ومن ثم فلا حاجة للبشر أن يهتموا بها، ويتضح التناقض عندما يبدأ نفس الفرد اليوناني أو الروماني الذي لا يهتم بأورانوس أو هاديس في التعامل مع زيوس (جوبيتر) إله الطقس، أو كورى إلهة المحاصيل، أو آريس إله الحرب، أو غيرهم من الآلهة التي تتدخل وتتحكم في أحيان كثيرة في حياة البشر، ومن ثم فلا بد في المقابل لهؤلاء البشر من تحديد طريقة فعالة وناجحة في التعامل مع هذه الآلهة والتي تمثلت في عبادتهم وتقديم القرابين لهم لكسب ودهم واستدرار عطفهم أو على الأقل لتلافي شرورهم وأحياناً عبثهم[١].

ديانات الأسرار:

شهدت القرون القليلة قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي عدة تغيرات سياسية وإجتماعية في العالم اليوناني الروماني، فالولايات اليونانية ومقدونيا أسست امبراطوريات ثم فقدتها، وانتشرت القوة الرومانية في حوض البحر المتوسط بالكامل تقريباً، في نفس الوقت الذي كانت مؤسساتهم الجمهورية تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة تحت ضغط الحروب الأهلية (١٣٣ ق. م ـ ٢٧ ق. م). إجمالاً يمكن القول أن هذه الفترة اتسمت بعدم الإستقرار والضياع والخوف من المستقبل، وانتشرت ممارسات

(١) هـ. روز، الديانة اليونانية القديمة، ترجمة رمزي عبده جرجس، القاهرة ١٩٦٥، صفحات ٨ ـ ١٤، CF. Easterling, P. E., Muir, J. V., Greek Religion and Society, Cambridge 1985, pp. 4 - 32; Jane Harrison, Prolegomena to the study of Greek Religion, New York 1955, pp. 257 - 362.

التنجيم والسحر، وظهر الفلاسفة الشكاكون، وفي مثل هذا المناخ كان من الطبيعي أن تزدهر الديانات السرية الهللينستية لأنها توفر الحماية لمن يعتنقها وتمنحهم الأمل في غد أفضل، بالإضافة إلى أنها قدمت بعض الإجابات والتفسيرات للشكاكين من الفلاسفة.

ويستعمل اصطلاح ديانات الأسرار للإشارة إلى عدد من الديانات ذات الأصول المتباينة والشخصيات المختلفة، وحتى المسيحية في بداياتها كانت أحياناً ما تعامل على أنها من ديانات الأسرار. وحتى بدايات الإمبراطورية الرومانية كانت أكثر هذه الديانات إنتشاراً عبادة ديميترا، ديونيسوس، إيزيس وسيرابيس، كيبيلى واتيس، والإله ميثرا. كما تناثرت ديانات أخرى بنفس النوعية حول حوض البحر المتوسط.

وباستثناء ديميترا يمكن القول أن أغلب هذه الآلهة كانت تُعبد أصلاً في الشرق الأدنى كآلهة محلية، ولم تكن لها صفة الغموض. وكديانات محلية فقد كانت في الأصل تقديساً لعناصر الطبيعة المختلفة المؤثرة في حياة الإنسان، وكان ضمان الخصب ونمو المحاصيل هدفاً أساسياً لأغلب هذه الديانات، وكان الجنس غالباً ما يحتل مكانة هامة في هذه الديانات كتعبير عن استمرارية الحياة وتدفقها[١].

وفي العصر الهللينستي اتصلت العديد من ديانات الشرق الأدنى بالديانات اليونانية وأثرت فيها وتأثرت بها، وكنتيجة لهذا الإتصال تحولت بعض الديانات المحلية إلى ديانات أسرار، ويبدو أن أولها كان الديانة أو الطقوس الإليوسية الغامضة، وهي عبادة ديميترا وكورى في اليوسيس بالقرب من أثينا.

ويمكن تعريف الديانات السرية بأنها الديانات التي يقوم معتنقوها بأداء طقوس غامضة تقتصر عليهم فقط وذلك لضمان حياة سعيدة أبدية بعد الموت. ورغم الإختلافات العديدة بين هذه الديانات بسبب أصولها المحلية المختلفة، إلا أن

---

(١) Edgar Krentz, the Mystery Religions: An overview, Religion and Ethics Institute, Evanston, U. S. A. 1980, p. 1.

العامل المشترك الذي ربط بينهم كان طقوس التكريس، وتلقين أوليات أو مبادىء الديانة، وهذه الأوليات كانت عادة ما تبدأ بطقوس التطهير، ثم يشارك المتعبد في عدة طقوس غامضة اختلفت من ديانة لأخرى ويُقصد بها التوحد مع الإله المقدس حتى يضمن لنفسه الخلود بعد الموت.

وعلى عكس ما كان يحدث في الديانات اليونانية أو الرومانية التقليدية التي عنيت بمجريات الحياة اليومية، فقد كانت الديانات السرية تقدم لمن يعتنقها الخلاص الشخصي والسعادة الأبدية، ونتيجة لذلك كان من الطبيعي أن تنتشر هذه الديانات عن طريق الهجرات والرحلات والتجارة وحتى الجيوش[١].

وكان لكل من هذه الديانات السرية أسطورة عبارة عن قصة مقدسة تتعلق بحياة أو بحادثة معينة في حياة إله هذه الديانة، تعطي من يعبده فكرة عن مغزى وجوهر هذه الديانة بما تحويه الأسطورة من إشارات ورموز مقدسة. ومثال لهذا من الديانات السرية اليونانية كانت أسطورة ديميترا وابنتها كورى (برسيفوني)، فقد كانت ديمترا إلهة الخصب والنماء، فلما إختطف بلوتو إلى العالم الأخر إبنتها كوري لتعيش معه، تأملت ديمترا فأجدبت الأرض، ولما سمح بلوتو لكوري بالعودة إلى أمها لمدة ستة أشهر من كل عام أخذت الأرض في الازدهار مرة أخرى، أما نصف العام الذي تقضيه كورى في العالم الآخر فكان رمزاً لجدب الأرض في فصل الشتاء، أي هي محاولة لتفسير دورة المحاصيل الزراعية أو موت الأرض ثم عودتها للحياة مرة أخرى، وبالتالي فإن معتنقوا ديانة ديميترا موعودون بالعودة إلى الحياة مثلهم في ذلك مثل الأرض.

ويصور لنا الشكل رقم (١) أكثر لحظات هذه الأسطورة درامية وهي لحظة اختطاف بلوتو لكورى بينما إحدى بنات أوقيانوس ـ وكانت تلعب مع كورى لحظة الاختطاف ـ تجري مذعورة، وهو عبارة عن نحت من الرخام من واجهة الحرم

(١) Ibid., p. 1 - 2.

المقدس في اليوسيس، وغالباً يعود إلى العصر الأرخى حيث أن ملامح الوجه رصينة ساكنة لا تحمل أية مشاعر[١].

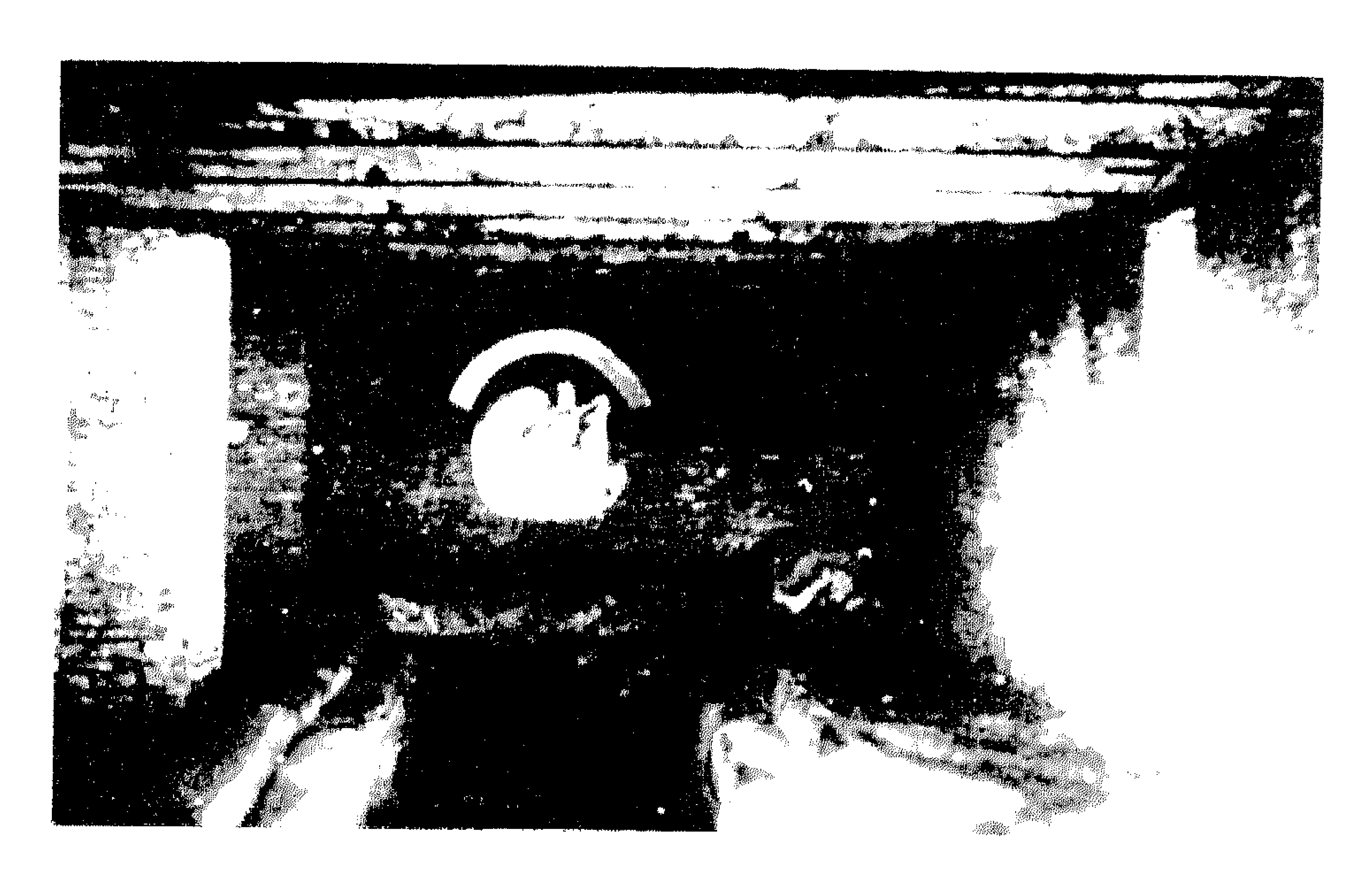


شكل رقم (١) إختطاف كوري

---

(١) Ibid., p. 2.

أما الديانات التي أتت من الشرق فقد جنحت إلى الإحتفاظ بآلهتها وأساطيرهم حتى بعد أن دخلت عليها الطقوس الغامضة وتحولت إلى ديانات سرية، والديانة الميثرائية أحد أبرز هذه الأمثلة. ويوضح لنا شكل رقم (٢) أحد معابد ميثرا من الداخل في أوستيا ميناء روما القديم، والنحت الغائر على الحائط في نهاية الغرفة جهة المذبح يصور أحد مشاهد أسطورة ميثرا، وهو هنا ذبحه للثور البدائي الأسطوري، وفي معابد أخرى كانت تصور مناظر متنوعة من سيرة حياة ميثرا الأسطورية بالنحت الغائر أو الفريسكو.



شكل رقم (٢) أحد معابد الإله ميثرا من الداخل (أوستيا)

ولما كان ميثرا إلهاً مرتبطاً بالشمس، لذا كانت معابده تبنى تحت الأرض حتى يتمكن كهنته من التحكم في كمية الضوء اللازم للقيام بطقوسهم[١].

---

(١) Ugo Bianchi, the Greek Mysteries, Leiden: E. J. Brill, 1976, p. 27 FF.

وقد طوعت هذه الأساطير المحلية نفسها لتتوائم مع الديانات التي كانت في طريقها لتصبح ديانات سرية ومن ثم تصبح جزءاً من الثقافة الهللينستية، حتى يمكن تفسير الطقوس والإعتقادات التي ظهرت في الديانات الجديدة عن فكرة الخلود الشخصي. فأسطورة افروديتي وأدونيس لم تخرج عن كونها قصة الموت والبعث وهي بهذا تتشابه مع قصص أخرى في عبادة كيبيلي وأتيس، فقد كان أدونيس هو زوج افروديتي المرتقب، فقتله خنزير بري ثم عاد إلى الحياة مرة أخرى. والشكل رقم (٣) يظهر لنا نحت روماني بارز وجد في شستر في انجلترا، وفيه يبدو أدونيس وهو يحتضر تحت شجرة في قبرص موطن افروديتي، وبالتالي عدلت الأسطورة من نفسها لتتلائم مع الديانات السرية، لأن معتنقوها سيعيشون أيضاً بعد الموت(١).



شكل رقم (٣) أدونيس يحتضر

وفي شكل آخر للأسطورة نجد أن افروديتي قد أودعت أدونيس عند الإلهة كورى، وفيما بعد عندما طلبت عودته رفضت كورى، فتظلمت افروديتي للإله زيوس

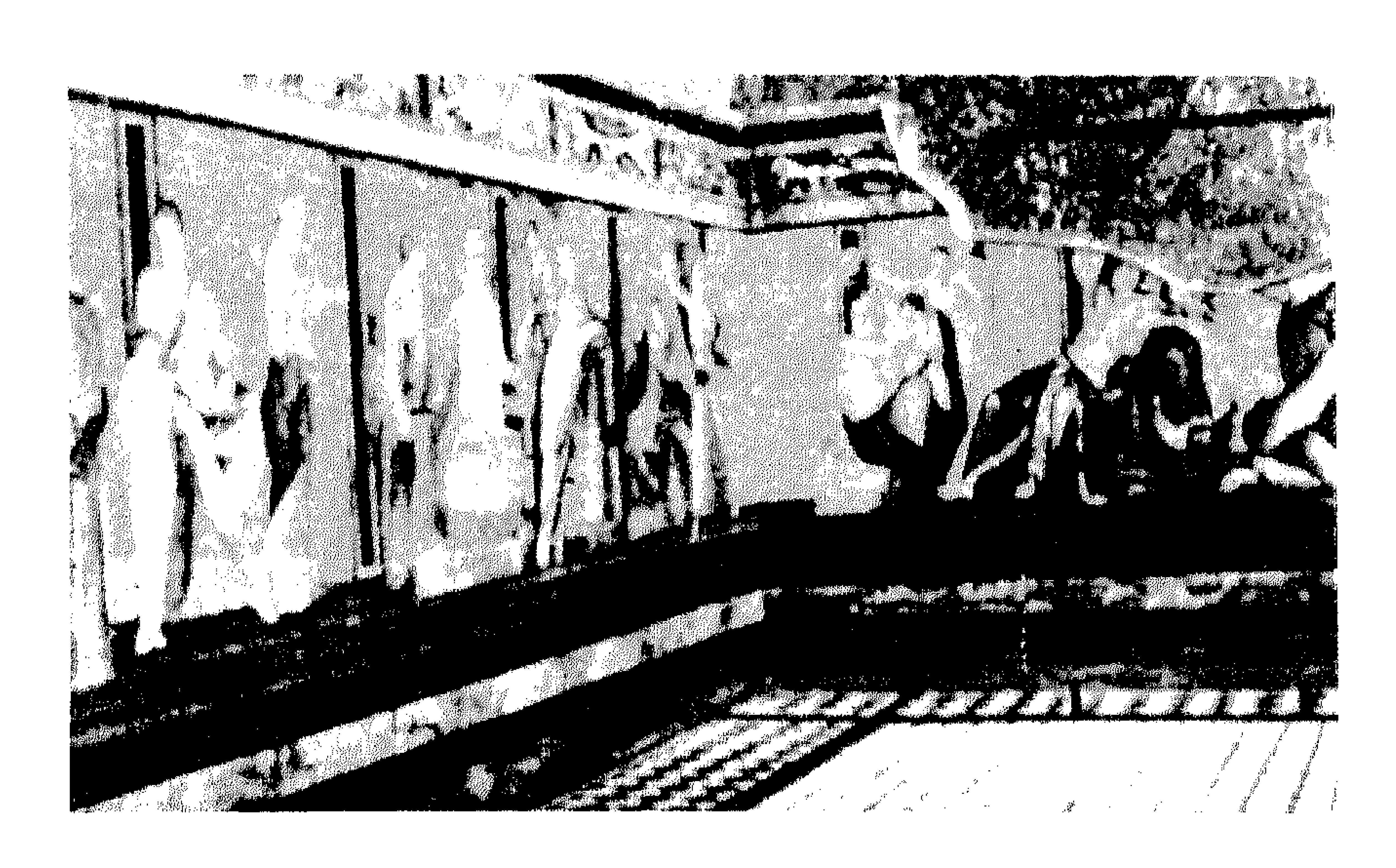
---

(١) Edgar Krentz, op. cit., p. 2.

الذي حكم بأن يمكث ادونيس نصف العام عند كورى، ونصفه الأخر عند افروديتي، وهذا الشكل هو بلا شك موائمة للقصة الأسيوية القديمة مع الأسطورة السائدة في التراث اليوناني في اليوسيس، وربما كان هذا عاملاً مساعداً في تأكيد فرضية أن الأساطير الاليوسية كانت قد أثرت في الديانات الشرقية خلال فترة إنتقالها إلى الغرب.

وفي ديانات الأسرار كانت الطقوس الغامضة تحمل قدراً لا بأس به من التناقض من ناحية الممارسة، أما من الناحية النظرية أو الفكر الكامن وراء هذه الطقوس فلسوء الحظ لا نعرف الكثير عنه، فقد سميت شعائر التكريس أو التلقين «الأسرار»، لكن لدينا بعض الرسومات على الفرسكو أتت من «ڤيلا الأسرار» في مدينة بومبي من المحتمل أنها تعود إلى الديانة الديونيسية، وكأغلب ديانات الأسرار فالموضوع الرئيسي لها هو تحقيق التوحد مع الإله[1].

والشكل رقم (٤) يبرز لوحات الفرسكو على ثلاثة جدران لإحدى حجرات



شكل رقم (٤) فرسكو من فيلا الأسرار (بومبي)

---

(١) Ibid., p. 3.

ڤيلا الأسرار في بومبي، وهو يوضح شعائر تكريس تظهر فيها إحدى الفتيات تستعد للزواج وهو تعبير رمزي للتوحد مع الإله وعلى الحائط الأخير ديونيسوس متكئاً على محظيته اريادني.

والشكل رقم (٥) عبارة عن لقطة مقربة تظهر العروس وهي تكشف الغطاء عن عضو ذكرى، وهي الطريقة القديمة لإظهار ما يرتبط بالزواج من حب حسي وخصوبة، فالتكريس لمثل هذه الديانات كان يهتم بإظهار أشياء مقدسة ترتبط بطقوس العبادة الغامضة مثل الأعضاء التناسلية رمز الخصوبة وإستمرارية الحياة. لكن من الصعوبة بمكان أن نأخذ من الأعضاء التناسلية رمزاً مشتركاً بين كل ديانات الأسرار، إلا أن ظاهرة كشف النقاب عن شيء مقدس أو له صلة بالطقوس الغامضة يمكن القول أنها كانت قاسماً مشتركاً بين أغلب هذه الديانات.



شكل رقم (٥) لقطة مقربة لنفس الفرسكو السابق

كما كان القمح رمزاً للحياة والموت ثم البعث، فالقمح يمثل الخلود للبشر الذين يولدون ثم يموتون ثم يبعثون في حياة خالدة سعيدة بشرط أن يعتنقوا إحدى

الديانات السرية التي تتيح لهم فرصة التوحد مع الأله، هذا التوحد الذي كان يحدث بعدة طرق منها الزواج كما سبق القول، ومنها الإشتراك في تناول الوجبات المقدسة، كما في عبادة ايزيس وسيرابيس، ومنها الوصول للنشوة والغيبوبة أو الإنجذاب الروحي كما في عبادة كيبيلى وديونيسوس، حيث يقوم عبدة ديونيسوس بشرب كميات النبيذ حتى تتملكهم روح الإله المقدس ويصلوا إلى مرحلة الغيبوبة التي تؤهلهم للتوحد مع الإله[1].

أما عن الأماكن التي كانت تقام فيها شعائر هذه الديانات السرية فقد أقيم لها إما معبد أو محراب صغير، وكانت محتويات هذه الأماكن تختلف من ديانة سرية لأخرى، ففي ديانات ديميترا وديونيسوس وكيبيلى وإيزيس والإلهة السورية أتارجاتيس كان لا بد من وجود تمثال للإله في المعبد أو المحراب، وهذا التمثال إما أن يكون معروضاً للمتعبدين، أو يخفى في مكان خاص به حيث يقوم الكهنة أو الكاهنات بالعناية المنتظمة به. أما في ديانة ميثرا فلم تتواجد مثل هذه التماثيل، بل كان يتم الإكتفاء بنحت بارز أو غائر على الحائط يمثل الإله مثيراً. وبالإضافة إلى التماثيل أو المنحوتات البارزة أو الغائرة فقد احتوت هذه الأماكن المقدسة أشياء أخرى لها علاقة رمزية بمعتقدات عبدة الإله.

وكانت أغلب هذه المعابد تكوّن جزءاً من المنطقة المقدسة التي غالباً ما كانت محاطة بسور يحميها، حيث كانت تجري شعائر العبادات في عدة أماكن داخل نطاق هذا السور، ففي اليوسيس مثلاً كان كهف بلوتونيوم يمثل المدخل إلى العالم الآخر الذي استعمله الإله بلوتو عند إختطافه لكورى.

ويثور هنا تساؤل حول الكيفية التي كانت تنظم بها هذه الديانات مع طقوسها الغامضة؟ وكأغلب الديانات الوثنية القديمة فقد كانت ديانات الأسرار تنظم بواسطة عدد من الكهنة أو الكاهنات أو كلاهما معاً، البعض منهم مسؤول عن تلقين وتعليم معتنقي هذه الديانة الفكر الكامن ورائها أي شرح العقيدة الدينية، والبعض الآخر

(١) Ugo Bianchi, op. cit., p. 16 FF.

مسؤول عن إقامة الطقوس الغامضة ومتابعة أدائها على الوجه الذي يحقق الغرض منها، أي متابعة شعائر العبادة. وكان لبعض هذه الديانات طقوس عبادة يومية، هذا بالطبع بالإضافة إلى الاحتفالات السنوية أو النصف سنوية والتي كانت تقام فيها مواكب الآلهة(١).

وكان من الطبيعي أن تنتقل بعض الأفكار من ديانة إلى أخرى أو بعض الطقوس من عبادة إلى أخرى داخل نطاق ديانات الأسرار، وهو ما يسمى بالتوافق الديني «Syncretism»، ويظهر الشكل رقم (٦) تمثالاً برونزياً يعود للعصر الروماني عثر عليه في بعلبك (لبنان) يمثل الإله جوبيتر هليوبوليتانوس أحد آلهة المدينة في العصر الروماني، ويبدو واضحاً أن معالم الإله جوبيتر الروماني قد اختفت تقريباً تحت تأثير الرموز المحلية للآلهة الفينيقية، كغطاء الرأس المعروف بإسم كالاثوسCalathos والذي يرمز إلى الخصوبة.



شكل رقم (٦) الإله جوبيتر هليوبوليتانوس

---

(١) Apuleivs, Apol., 55; Metam., XI; Lucretius, De Rerum Natura, II, 600 - 645.

وكانت أغلب هذه الديانات متاحة أمام الجميع، أحراراً وعبيداً، رجالاً ونساءاً، صغاراً وكباراً، ومن ثم أتيح لها قدراً كبيراً من الإنتشار، وبالتدريج بدأت الفوارق الحادة بين هذه الديانات تذوب، حتى أن بعض الدارسين يعتقد أن ديانتين مثل كيبيلى وميثرا قد توحدتا في ديانة مزدوجة في ولايات الإمبراطورية الرومانية الغربية[١].

ديانة الأسرار الإليوسية

تعود ديانة الأسرار الإليوسية إلى حوالي القرن السادس عشر ق. م، واستمرت حتى القرن الرابع الميلادي، أي حوالي الألفي عام، وربما تكون هذه الديانة قد نشأت أصلاً من الديانات الإيجية القديمة، فالأدلة الأثرية توضح أنها من أقدم ديانات الأسرار اليونانية على الإطلاق[٢].

وغالباً ما تعارضت ديانات الأسرار اليونانية مع الديانات السائدة في دولة المدينة (ما يشبه الديانات الرسمية) ذات الطقوس العلنية، والتي تهتم أساساً بمظاهر الحياة الدنيوية، وبالتالي فلم تتحقق فيها فكرة العالم الآخر والتي كانت أقرب إلى الغموض والإهتزاز. وعلى العكس من ذلك فقد ضمنت ديانات الأسرار لمن يعتنقها مشاركة شخصية في طقوس غامضة تضمن له حياة سعيدة مباركة في العالم الآخر.

وقد أخذت هذه الديانة إسمها من مدينة صغيرة تبعد أربعة عشر ميلاً إلى الغرب من أثينا، ويربطهما طريق مباشر يسمى الطريق المقدس. ومن اليوسيس انتشرت هذه الديانة في اليونان كلها، بل وصاحبت اليونانيين في هجراتهم ومستعمراتهم الجديدة في آسيا الصغرى وصقلية وجنوب إيطاليا وحتى سواحل البحر الأسود. وفي العصرين الهللنيستي والروماني أصبح من الممكن لغير اليوناني أن ينضم إلى هذه الديانة والتي كانت متاحة للجميع من الرجال والنساء والأطفال وحتى

---

(١) Edgar Krentz, op. cit., p. 6.

(٢) David Aune, the Eleusinian Mysteries, Religion and Ethics Institute, Evanston, U. S. A., 1976, p. 1.

العبيد، حتى أن شيشرون يقول:

«لقد أصبح لدينا الآن المبرر كي نعيش في حبور.
ونموت على أمل أفضل».[1]

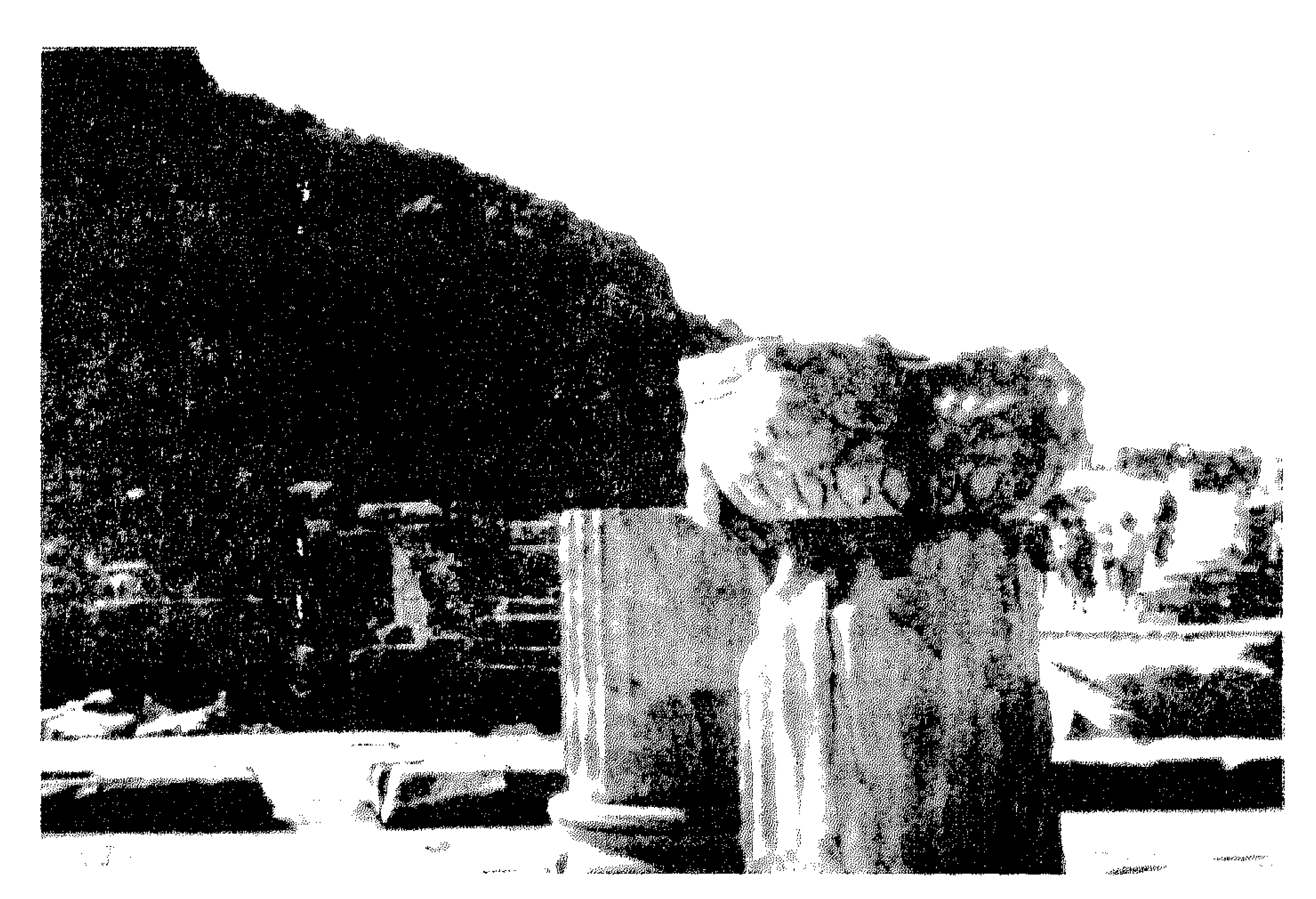
وكانت الإلهة الرئيسية في هذه الديانة هي الإلهة ديميترا أو «الأرض الأم» مانحة الحياة والخصوبة، أما الشكل رقم (٧) فتظهر فيه الإلهة ديميترا إلى اليسار مع ابنتها برسيفوني إلى اليمين،



شكل رقم (٧) الإلهة ديميترا وابنتها برسيفوني

(١) Cic., de Legibus, II. 14. 36.

أما الشكل رقم (٨) فيظهر فيه مدخل الكهف المسمى بلوتونيوم في اليوسيس والذي اعتقد اليونانيون أنه المدخل إلى العالم الآخر الذي يستعمله الإله بلوتو.



شكل رقم (٨) كهف بلوتونيوم (إليوسيس)

ويوضح الشكل (٩) تمثالاً ديميترا يؤرخ بحوالي ٤٦٠ ق. م، وتستمر الأسطورة في محاولة تفسير أصل هذه الديانة قائلة بأن الإلهة ديميترا بعد أن اختطف بلوتو إبنتها أخذت تتجول باحثة عنها حتى وصلت إلى اليوسيس متنكرة في زي امرأة عجوز، وعرضت عليها ابنة ملك اليوسيس أن تعمل كمربية للإبن الوحيد للملك، وفي محاولة من ديميترا لرد جميل الملك وحسن معاملته لها حاولت أن تهب إبنه الخلود، إلا أن الأم فزعت من الطقوس الغامضة التي تقوم بها ديميترا ورفضت، فكشفت ديميترا لهم عن شخصيتها، وطالبت أهل اليوسيس أن يبنوا لها معبداً ووعدتهم أن تعلمهم هذه الطقوس الغامضة التي ستضمن لهم الخلود بعد الموت[١].

(١) Hymm to Demeter, (Loeb), 478 - 79.



شكل رقم (٩) الإلهة ديميترا

وكان الإحتفال بالأسرار الإليوسية الصغرى والأسرار الكبرى يتم سنوياً، لكن لا يعرف الكثير عن الأسرار الصغرى ما عدا أنها كانت تتم في الربيع، أما الأسرار الإليوسية الكبرى فقد كان الإحتفال بها يتم في الخريف خلال شهر «بويدروميون» (سبتمبر ـ اكتوبر) في الوقت الذي تبدأ فيه الحقول في الإخضرار. في الثالث عشر من شهر بويدروميون (٢١/٢٢ سبتمبر) كان الكهنة يحملون تمثال ديونيسوس مع رموز أخرى مقدسة تتعلق بعبادة ديميترا من معبدها في اليوسيس ليودع في معبدها في أثينا عبر الطريق المقدس في موكب حافل. وفي اليوم التالي (١٤ بويدروميون) يعلن الكاهن الأكبر للآلهة ديميترا في أثينا بداية الإحتفالات. وفي اليوم الذي يليه (١٥ بويدروميون) يبدأ معتنقوا ديانة الأسرار الإليوسية في إجراء طقوس التطهير في خليج

«فاليرون» إلى الشمال من أثينا حيث يقومون بالإغتسال، ويطهرون معهم خنزيراً صغيراً ثم يذبح الخنزير وينثر دمه على عبدة ديميترا، ثم يطلب منهم الصيام لثلاثة أيام، ويظهر في الشكل رقم (١٠) نحت غائر من القرن الخامس ق. م تبدو فيه الإلهة برسيفوني تقوم بهذه الطقوس لتطهر عدداً من المبتدئين الذين انضموا حديثاً إلى ديانة الأسرار الإليوسية[١].



شكل رقم (١٠) طقوس التطهير في الأسرار الإليوسية

وفي التاسع عشر والعشرين من شهر بويدروميون يتجمع كهنة الإلهة ديميترا مع عبادها الذين تطهروا حاملين أغصان وأوراق الريحان، ثم يتحركون من أثينا عبر الطريق المقدس إلى اليوسيس حاملين معهم تمثال ديونيسوس الذي كان سُبق أن أحضر قبل أسبوع إلى أثينا. وكان الموكب يتحرك ببطء شديد حيث كان من المفترض أن تقدم القرابين والأضاحى على كل المذابح التي يمتلىء بها الطريق[٢].

(١) David Aune, op. cit., pp. 3 - 4.

(٢) Ibid., pp. 4 - 5.

وأخيراً وحوالي اليوم الواحد والعشرون من الشهر يصل الموكب ليلاً إلى معبد ديميترا في اليوسيس بصحبة المشاعل المضيئة، ويبدو أنهم كانوا يشاركون في وجبة مقدسة من الخبز مع شراب مميز عبارة عن خليط من مسحوق الشعير والماء معطر بالنعناع يسمى كيكيون kykeon ويشرب في أوعية ذات شكل غريب تسمى كيرنوي[١] kernoi.

وكان الوعد بالخلود بعد الموت هو مكافأة المشاركين في هذه الطقوس، وهو الخلود الذي يرتبط بالبذور الميتة التي تعود إلى الحياة في رحم الأرض الأم، وكان من المعتقد أن هذا الخلود سيتم تحت الأرض.

يقول بنداروس:

«مبارك هو من شارك في هذا، سيجتاز طريقه تحت الأرض، فهو يعرف نهاية الحياة، ثم بدايتها مرة أخرى والتي سيهبها له زيوس». [٢]

ويقول سوفوكليس:

«مباركون ثلاث مرات هؤلاء الفانون الذين شاركوا في هذه الأسرار، قبل رحيلهم إلى هاديس، لأنهم فقط من سيحظون بحياة حقيقية هناك»[٣].

الأسرار الديونيسية

يظهر الإله ديونيسوس في صور عدة، فهو إله النبيذ، إله النبات المزهر، إله المسرح، إله الجنون المقدس، إله سطوة الجنس، وهو إله تمتد سطوته إلى ما وراء القبر. وحتى الستينات من هذا القرن كان الإعتقاد السائد هو أن ديونيسوس قد أتى إلى اليونان من تراكيا وفريجيا فيما قبل القرن السادس ق. م بقليل، واعتمدت هذه النظرية على أن ديونيسوس لا يظهر كواحد من آلهة الأوليمبوس في أشعار هوميروس، بالإضافة إلى أن الأسطورة نفسها تتحدث عن إله جديد أتى من بلاد

(١) Clement of Alexandria, Prott., 2. 18.

(٢) Pindar, Frag., 121 (Bowra).

(٣) Sophocles, Frag., 753 (Nauck, T. G. F).

بعيدة ويصيب من يرفض عبادته بالجنون.

إلا أن مثل هذه النظرية لا تصمد طويلاً للمناقشة، فسندها الأساس هو الأسطورة التي تتحدث عن إله جديد أتى من بلاد بعيدة، وربما كان هذا إشارة إلى فترة تاريخية كانت ديانة ديونيسوس فيها غير مقبولة بالدرجة الكافية، إلى أن تم انتشارها وتقبلها اليونانيون. أما عدم ذكر ديونيسوس في أشعار هوميروس فهذا ليس بدليل مؤكد على عدم وجوده، ومن الغريب أن اسم ديونيسوس يظهر بشكله القديم مرتبطاً بالنبيذ على ألواح لنير ب (Linear B) بترتيب الأحرف التالي (Diwonusojo)، مما قد يرجح أن ديانة ديونيسوس قد تأسست في اليونان خلال فترة الحضارتان الإيجية والموكينية[١].

وكانت ديانة ديونيسوس مفتوحة أمام الرجال والنساء على حد سواء، إلا أن النساء فقط كن يصبحن «ماينادز» Maenads، فكن يمارسن الرقص الذي أطلق عليه «رقص الجبال»، وهو طقس كان يتم شتاءاً في أماكن مقدسة محددة وليس بشكل عفوي تلقائي كما تقول الأسطورة، وكان هذا الرقص يعبر عن حالة من الإنجذاب المؤقت من المعتقد أن ديونيسوس هو الذي كان يسببه.

وقد ارتبطت ديانة ديونيسوس بأعياد عدة كانت تقام في أثينا وغيرها من المدن اليونانية، منها عيد «الأنثيستاريا» Anthesteria في شهر فبراير ويستمر لثلاثة أيام، ففي اليوم الأول كان يتم فتح جرار النبيذ الجديد ويتم تقديم قربان منه إلى ديونيسوس، وفي اليوم الثاني كان يتم عرض تمثال ديونيسوس في موكب حافل، وفي هذا اليوم كانت زوجة الحاكم والمسئول عن الشؤون الدينية Archon Basileus تقوم بأداء طقس غامض ربما قرب أحد المستنقعات، ثم تعود إلى الأجورا الأثينية حيث كان يتم طقس آخر يرمز بها إلى زوجها المقدس بديونيوس نفسه أي إيجادها مع الإله، وربما

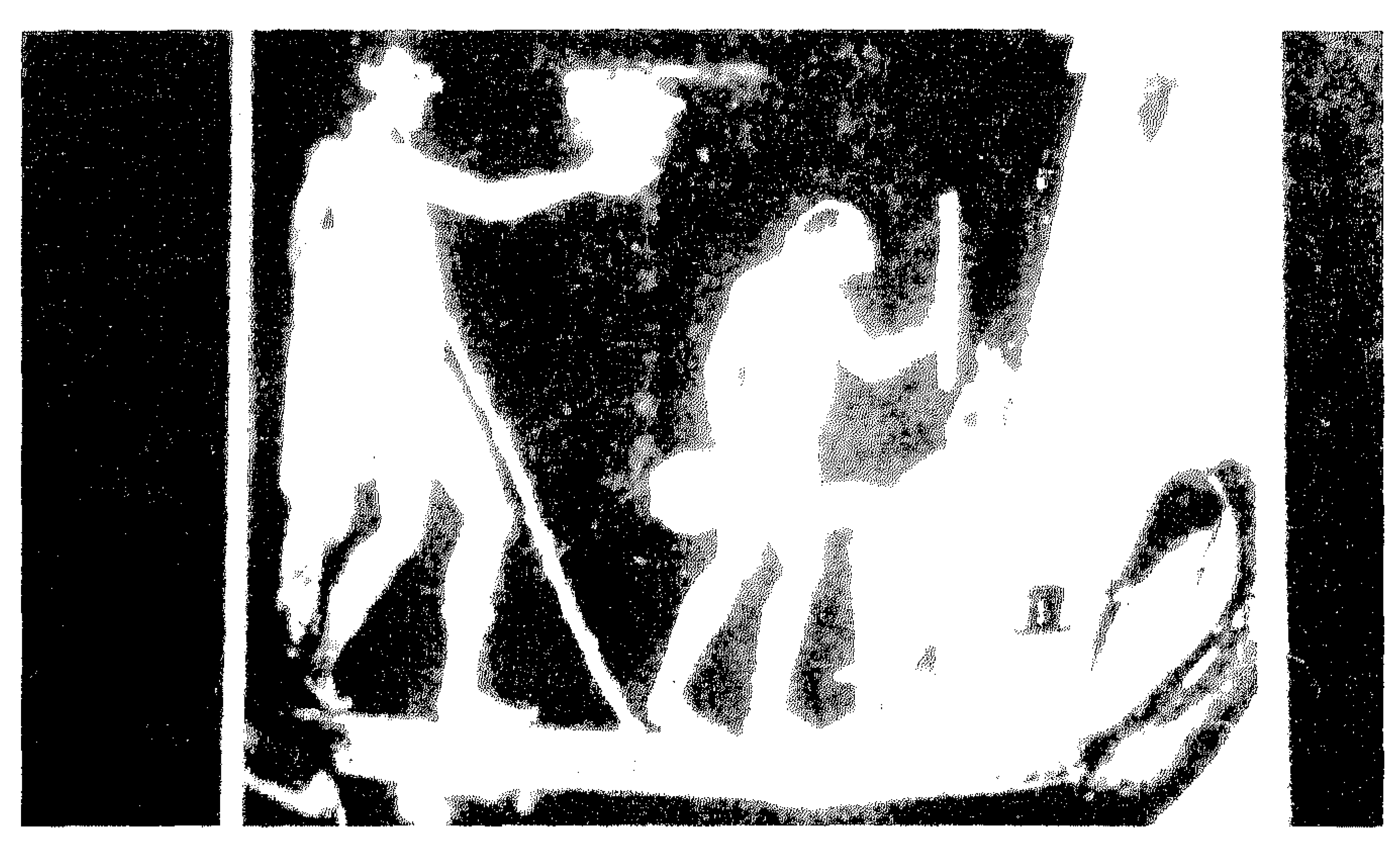
---

(١) Susan Cole, the Dionysas Cult, Religion and Ethics Institute, Evanston, U. S. A., 1980, pp. 1 - 2.

CF. Walter Otto, Dionysos, Myth and Cult, Indiana University Press, 1965, Passim.

كان زوجها يقوم بدور ديونيسوس في هذا الطقس.

ويظهر الشكل (١١) إناءاً من القرن الخامس ق. م صورت عليه زوجة الأرخون تنتظر ديونيسوس لإتمام الزواج، بينما صور ديونيسوس بصحبة أحد أتباعه من الساتير. أما اليوم الثالث والأخير فكانت تقدم فيه القرابين لأرواح الموتى(١).

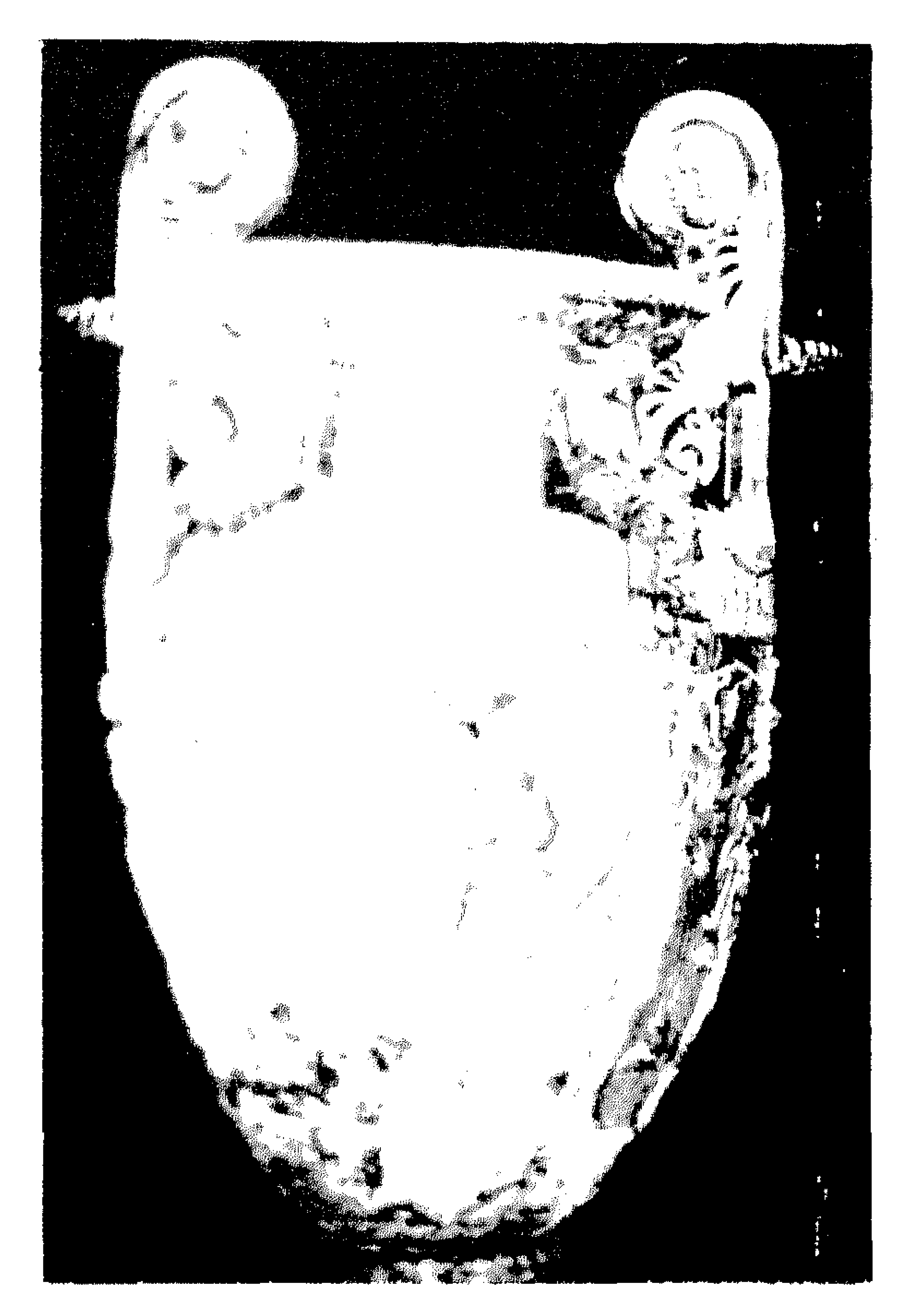


شكل رقم (١١) الزواج المقدس

ويوضح الشكل رقم (١٢) إناءاً مطلياً بالذهب يعود إلى القرن الرابع ق. م وُجد في مقبرة في «درڤني» Derveni وهي قرية صغيرة إلى الجنوب من تسالونيكي في شمال اليونان، والإناء محلى بزخارف بارزة تمثل ديونيسوس مع محبوبته اريادني، والساتير والمايناذز يرقصون. وربما كان هناك ارتباط بين معتقدات صاحب الإناء الدينية وبين ما هو ممثل على الإناء، فقد وجدت العديد من الأواني المرسوم عليها مثل هذه المناظر في مقابر يونانية بجنوب إيطاليا، ففي مقبرة في «لوكروي» Lokroi وجد تمثال صغير لإحدى المايناذز في يد امرأة ميتة، وفي مقبرة في «هيبونيون» Hipponion وجد نقش يتحدث عن الطريق المقدس الذي سيسلكه من يعبد ديونيسوس إلى العالم الآخر.

---

(١) Susan Cole, op. cit., pp. 2 - 3.



شكل رقم (١٢) ديونيسوس وأريادني

وبحلول القرن الرابع ق. م ساد الإعتقاد بأن من يعتنق ديانة ديونيسوس السرية ويشارك في طقوسها الغامضة في محاولة للإتحاد مع الإله ستكون له حياة سعيدة خالدة بعد الموت. وبحلول القرن الثاني ق. م كانت ديانة ديونيسوس السرية قد انتشرت في مدن كثيرة في اليونان وآسيا الصغرى. وبحلول القرن الأول ق. م انتشرت عبادة «باخوس» كما كان يعرف ديونيسوس في إيطاليا، من الجنوب صوب الشمال حتى روما، رغم أن ذيوع هذه الديانة قد قوبل بتحفظ شديد من قبل للجهات الحكومية في روما، ربما لعدم الإنضباط الذي تميز به عبدة باخوس، إلا أن المؤرخ

ليفيوس يخبرنا بأن الطقوس الغامضة لهذه الديانة السرية كانت تقام في روما لمدة خمسة أيام في كل شهر، وكان يشارك فيها الرجال والنساء معاً[(١)].

ويبدو أن هذه الطقوس كانت سيئة السمعة في روما حيث ارتبطت غالباً ببعض الأعمال غير القانونية خاصة الجنسية منها، مما اضطر السناتو الروماني لإصدار قرار يقضي بمنع أي شخص يعيش في إيطاليا ويعتنق ديانة باخوس السرية أن يقيم طقوسها الغامضة أو حتى يلتقي بزميل له. ورغم هذا فقد استمرت الديانة السرية في الانتشار. [(٢)]

فقد استمر الإهتمام بهذه الديانة حتى القرن الثالث الميلادي كما يتضح من العديد من التوابيت الرومانية التي وصلتنا بالإضافة إلى عدد كبير من النقوش يعود لهذه الفترة. وربما يعود هذا إلى ازدياد الاهتمام بفكرة العالم الآخر والحياة بعد الموت، فقد مثل ديونيسوس لمن اعتنق ديانته ـ حسب الأسطورة ـ الإنتصار على الموت بولادته مرة أخرى من فخذ أبيه زيوس بعد أن احترقت أمه.

وفيما قبل العصر الهلليستي لم تشيد معابد ضخمة للإله ديونيسوس، فالمباني التي ارتبطت بعبادته في اليونان كانت عادة مبان صغيرة الحجم. والأمثلة على المعابد القائمة حالياً قليلة وأفضلها هو معبد ديونيسوس في هليوبوليس (بعلبك ـ لبنان) كما يبدو في الشكل رقم (١٣)، وقد بنى خلال القرن الثاني الميلادي، وتحت الصالة الرئيسية للمعبد وجد كهف كبير يبدو أن الطقوس الغامضة لديونيسوس كانت تقام فيه[(٣)].

---

(١) Livy, Hist., XXXIX, 9 - 18.

(٢) Susan Cole, op. cit., p. 5.

Cf. Walter Otto, op. cit., passim.

(٣) Susan Cole, op. cit., pp. 6 - 7.



شكل رقم (١٣) معبد ديونيسوس في هليوبوليس (بعلبك ـ لبنان)

الأسرار الساموثراكية

كانت جزيرة ساموثراك (شكل ١٤) موطناً لواحدة من أشهر الديانات السرية اليونانية ألا وهي الديانة الساموثراكية. ومعلوماتنا عن الأصول التاريخية للديانة الساموثراكية قليلة، بل تكاد تكون منعدمة، وتوجد مؤشرات إلى احتمال استعمال لغة غير اللغة اليونانية في أداء طقوس هذه الديانة، مما يبرز إحتمال أن تكون أصول هذه الديانة غير يونانية. وبحلول أواخر القرن الخامس ق. م أصبحت هذه الديانة مألوفة لليونانيين حتى في أثينا نفسها[١].

---

(١) Herodotus, II, 51.



شكل رقم (١٤) جزيرى ساموثراك

ومن العسير إضافة شيء آخر للأصول التاريخية للديانة، فالمصادر الأدبية متأخرة وغامضة وغالباً متناقضة. ورغم أن الحرم المقدس للديانة الساموثراكية قد تمَ التنقيب فيه إلا أن الكثير من اللقى الأثرية أصبحت تشكل مشكلة.

ويبدو أن الآلهة الساموثراكية لم تكن لها أسماء منفردة بل أطلق عليها «Theoi Megaloi» أي الآلهة العظيمة، أو «Theoi Samothrakes» أي الآلهة الساموثراكية كما أطلق عليها في مناطق غير جزيرة ساموثراك نفسها[١].

وتقع جزيرة ساموثراك بالقرب من الجزء الجنوبي الغربي لساحل آسيا الصغرى وهي ذات طبيعة جبلية، تبدو جبالها وكأنها ترتفع مباشرةً من البحر، ويعتبر جبل ساوسSaos أو فنجاريPhengari كما يسمى حديثاً أعلى نقطة في منطقة بحر إيجة بين جبلي آثوس وإيدا، وبسبب هذا فقد سيطر الجبل على المنطقة المحيطة به والتي

---

(١) Susan Cole, the Samothracian Mysteries, Religion and Ethics Institute, Evanston, U. S. A., 1978, p. 1.

كانت دائماً ما تجتاحها العواصف، ولهذا لم يكن غريباً أن يسود الإعتقاد بأن الآلهة الساموثراكية تسيطر على البحر والرياح والعواصف. وحتى عصر اريستوفانيس كان يسود الإعتقاد بأن هذه الديانة تحمي من يعتنقها من العواصف وتحطم السفن وما إلى ذلك[١].

ويبدو أن الحرم المقدس للديانة الساموثرامية ويسمى Temenos قد تم اختياره بناء على الموقع نفسه، فهو عبارة عن منطقة مجوفة بين تلين تشرف على الجبال والبحر، وفي هذا التجويف وجد جدولين للمياه وعدة طبقات من الصخور الملونة. وتقع البوابة التي تقود إلى الحرم المقدس جهة التل الشرقي تليها مساحة دائرية لأداء الشعائر الأولية يليها ممر ذو درجات يقود إلى أسفل قليلاً حيث توجد عدة مبان استخدمت لأداء الطقوس الغامضة. ففي الوسط يوجد «الأناكتورون» Anaktoron وبعده وجد «الأرسينويون» Arsinoeion، ثم يليه «الهيرون» Hieron. كما بنيت خمس غرف على الجانب الغربي للتل مقابل البوابة استعملت لتناول الطعام. وفي أقصى الحرم المقدس وجدت عين ماء استعملت غالباً في طقوس التطهير. وربما يعود الفضل في بناء هذه المباني إلى فيليب الثاني وولده الإسكندر المقدوني ومن بعدهم ملوك البطالمة والسليوقيين، وقد كان لرعايتهم هذه الديانة أثر كبير في تطورها وانتشارها خلال القرن الثالث ق. م[٢].

وتبدأ الطقوس الغامضة عادةً بتقدمة للأسرار المقدسة يقوم بها أحد الكهنة لمن يرغبون في تكريس أنفسهم لديانة ساموتراك السرية، كما يقول لنا ليفيوس[٣] «Praefatio Sacrorum»، ثم تستمر الطقوس بعد ذلك على مرحلتين: الأولى تسمى، Myesis وتجري في المبنى المسمى Anaktoron، والثانية تسمى Epopteia وتجري في المبنى المسمى Hieron، ويبدو أن المرحلة الثانية كانت تقتصر على عدد محدود ممن اعتنقوا هذه الديانة لأسباب غير مؤكدة حتى الآن، ربما كان من بينها أن من أتموا

(١) Aristophanes, Pax, 1276 - 86.

(٢) Susan Cole, op. cit., p. 2.

(٣) Livy, 45, 51 - 6, 11.

المرحلة الثانية كانوا أكثر تديناً وأفضل سلوكاً من بقية أقرانهم[١]. ويبدو أن هذه الطقوس كانت تجري ليلاً بسبب كثرة آثار المشاعل والمصابيح التي عثر عليها في الموقع.

أما ماهية هذه الطقوس فهذا غير مؤكد، لكن على ما يبدو فقد كانت تشتمل على رقص وموسيقى وقرابين تصب في بئر مخصص لذلك يقع إلى الجانب الشمالي الشرقي لمبنى الأناكتورون[٢]. وغالباً فقد كانت الطقوس تنتهي بتقديم وجبة مقدسة في عدة غرف بنيت على الجانب الغربي للتل[٣]. ويبدو أنه رغم انتشار هذه الديانة في العالم اليوناني خاصة في العصر الهللينستي، إلا أن عملية التكريس لم تكن تتم إلا في جزيرة ساموتراك نفسها[٤].

يثور الآن تساؤل هام حول الآلهة الساموثراكية، من هم؟ وما هي طبيعتهم؟ وتوجد لدينا مقولة لمن يسمى مناسياس Mnaseas الذي ربما عاش في القرن الثالث ق. م والذي يسمى آلهة ساموثراك بالأسماء التالية: Axieros, Axiokersa, Axiokersos, Kasmilos، ويبدو أنها كانت ألقاباً للآلهة أكثر منها أسماء لهم، وربما أشارت إلى إلهين من الذكور، وإلهتين من الأناث[٥].

ورغم عدم معرفتنا الكافية بأصل هذه الديانة السرية ولا كيفية إجراء طقوسها الغامضة إلا أنها من حيث الشهرة والانتشار تأتي في المرتبة الثانية بعد ديانة اليوسيس السرية، فقد كان حرم ساموثراك واحداً من أهم وأشهر الأماكن الدينية في العصرين الهللينستي والروماني، وقد بدأ الرومان في اعتناق هذه الديانة حوالي القرن الثاني ق. م، ويبدو أنهم قد استمروا في ذلك حتى أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس مرسومة

---

(١) Diod. sic., v, 48, 4 - 50; Plutarch, Moralia, 217 c - d, 229 d.

(٢) Strabo, x, 3, 7. (466 c).

(٣) Susan Cole, op. cit., p. 5

(٤) Ibid., p. 6.

(٥) Preserved by the Scholia Laurentiana to Apollonius of Rhodes Argonautica, 1. 9. 7, apud Susan Cole, op. cit., p. 7 note 10.

الشهير بتحريم عبادة الآلهة الوثنية في ٣٩١ م[١].

ديانة ميثرا السرية

يصور الإله ميثرا دائماً وهو يقتل ثوراً، هذا التصوير وجد على العديد من قطع الفرسكو والميداليات وبعض التماثيل في أغلب أماكن التنقيب الأثري في الإمبراطورية الرومانية، ويسمى هذا النوع من التصوير Tauroctone أي «ذبح الثور»، وهو شعار الديانة الميثرائية.

أما عن أصول هذه الديانة فقد اختلفت فيها الآراء، وأقدم هذه الآراء يقول بأنها ديانة مزدية من فارس القديمة أخذت شكلها النهائي في آسيا الصغرى خلال العصر الهللينستي[٢]. وعلى العكس يوجد رأي آخر يقول بأنها ديانة غربية أخذت الطابع الشرقي بعد إضافة بعض الملامح التي تتميز بها ديانات الشرق الأدنى[٣] أما الرأي الثالث فيقول بأنها ديانة يونانية شرقية الأصل نشأت في سوريا أو بلاد الأناضول في فترة متأخرة من العصر الهللنيستي، ثم انتقلت إلى إيطاليا حيث تطورت وأخذت شكلها الروماني[٤].

والرأي الأول له الكثير من نقاط الضعف، فالديانة الفارسية (المزدية) تفتقد لكثير من ملامح الديانة الميثرائية الرومانية، بالإضافة إلى أنها لم تكن ديانة أسرار كديانة ميثرا الرومانية.

أما الرأي الثاني فبالرغم من أنه لاقى بعض القبول إلا أنه يحوى أيضاً العديد من نقاط الضعف مثل:

ـ كل ديانات الأسرار التي احتوت على عناصر شرقية وغربية معاً، تكونت عن

---

(١) Susan Cole, op. cit., pp. 6 - 7.

(٢) Franz Cumont, the Mysteries of Mithra, Chicago 1903, p. 15.

(٣) Howard Teeple, the Cult of Mithras, Religion and Ethics Institute, Evanston, U. S. A., 1988, p. 3.

(٤) Ibid., Loc. cit.

طريق انتقالها من الشرق إلى الغرب وليس العكس، كما أن إدخال عناصر شرقية على ديانة رومانية لم تكن بالتصرف المنطقي الذي يقوم به الرومان.

ـ الديانة الميثرائية الرومانية معقدة بدرجة تجعل من الصعب القول بأنها قد انبعثت فجأة من لا شيء، فلا بد وأنها قد تطورت عبر فترة طويلة من الزمن.

ـ مشكلة أخرى تواجه نظرية الأصل الغربي للديانة الميثرائية حيث أن دعاتها يفترضون أن هذه الديانة قد بدأت حوالي ١٠٠ م، وهو تاريخ أقدم اكتشافات أثرية تتعلق بهذه الديانة، لكن دعاة هذا الرأي يقعون هنا في مصيدة تفسير الاكتشافات الأثرية تفسيراً تاريخياً خاطئاً، فبهذا المنطق يمكن لنا القول بأن المسيحية لم تبدأ إلا في التاريخ الذي تعود إليه أقدم الكنائس التي عثر عليها، وهذا يعني إسقاط قرنين على الأقل من التاريخ الحقيقي لبداية المسيحية، فالميثرائيون الأول يمكن أن يكونوا قد عقدوا إجتماعاتهم في منازلهم مثلهم في ذلك مثل المسيحيون الأول الذين لم تترك منازلهم التي استعملوها ككنائس أية بقايا أثرية. وأكثر من ذلك يمكن القول أن إجتماعات عبدة ميثرا الأول كانت تعقد خارج المنازل ليلاً، وذلك إذا ما أخذنا في الإعتبار أن الميثرائية الرومانية كانت تهتم في الأساس بالسماء والأبراج والشمس والقمر[1]. أما الرأي الثالث فيبدو أن أقرب الآراء إلى المنطق حسبما سيتضح من العجالة التالية

وإذا ما تتبعنا ظروف الإله ميثرا في الامبراطورية الفارسية للتحقق مما إذا كانت ديانته تحمل قدراً من ملامح الديانة الميثرائية الرومانية لوجدنا أن ميثرا قد ظهر في ديانة عبادة الطبيعة الهندوأوروبية القديمة قبل أن يحاول زرادشت تطويرها. وقد استبعد زرادشت ميثرا من دعوته الدينية، ورغم ذلك وردت بعض الإشارات إلى ميثرا في كتابة المقدس «الأفستا» Avesta وخاصة في الأناشيد ٣٥ ـ ٤٢ (Gathas)، إلا أن أغلب الدارسين يميلون إلى الاعتقاد بأن هذه الأناشيد دخيلة على الكتاب المقدس «الأفستا» ولم يقم زرادشت بكتابتها، بل كتبتها بعض كهنته بعد موته حتى

(١) Ibid., pp. 3 - 4.

يحققوا قدراً من الموائمة بين الزرادشتية والديانات القديمة الموجودة[١].

وتنقسم «الأفستا» الزرادشتية إلى ثلاثة أقسام:

١ - ياسنا Yasna ويحتوي على الأناشيد Gathas.

٢ - ياشت Yashts وهي عبارة عن ابتهالات وأدعية للآلهة ومديح لها.

٣ - ڤيديڤدات Videvdat وهو عبارة عن شرح لطقوس الديانة الزرادشتية.

وفي الإبتهال العاشر من «الياشت» يظهر ميثرا كإله متطور عما ظهر عليه سابقاً في الأناشيد «Gathas»، مما يمكن أن نسميه عودة إلى عناصر الديانة القديمة التي كانت ما تزال موجودة جنباً إلى جنب مع الزرادشتية، مع تطعيمها ببعض عناصر من عبادة رموز الطبيعة القديمة جداً. وفي هذا الإبتهال يظهر ميثرا كإله للحرب، يدمر الأعداء ويمنح النصر لمن يعبده، وهو يحمي الفقراء والضعفاء ويجري الماء وينضج المحاصيل، وهو مانح الحياة نفسها الذي يسكن في السماء. يعبده من يبحث عن الحقيقة بجانب عبادة «اهورا مزدا» «Ahura Mazda» (الإله الأكبر الحكيم)، وهو ليس الشمس ولكنه النور الذي بداخل الشمس والقمر والنجوم، وإجمالاً هو إله النور أرسله الإله الأكبر «اهورا مزدا» كي يعتني بالكون أجمع[٢].

أي أن الإله ميثرا في الديانة الفارسية القديمة لم يكن هو الإله الرئيسي بل كان واحداً ضمن عدة آلهة، ويقول هيرودوت أن الفرس لم يكن لديهم تماثيل أو معابد أو مذابح لآلهتهم[٣]، لكن يبدو أنه قد حدث بعض التطور، فيلاحظ سترابون بعد ذلك بحوالي أربعة قرون ونصف أن التضحيات كانت تقدم في معبد النار، حيث كانت توقد نار يراعى أن لا تنطفيء أبداً، وكانت الصلوات تؤدى نهاراً حيث يؤدي عبدة ميثرا مجموعة من التراتيل لمدة ساعة تقريباً وهم ممسكون بحزمة من العصى ويرتدون على رؤوسهم غطاء رأس من اللباد ليسدل من الجانبين ويغطى الفم حتى لا

---

(١) R. C. Zaehner, the Dawn and Twilight of Zoroastrinism, London 1961, p. 62.

(٢) Ibid., p. 110.

(٣) Herod., I, 131.

يطفئوا النار ولو بدون قصد[١].

وقد أكدت الإكتشافات الأثرية وصف سترابون، فقد عثر على نحت بارز يعود للقرن الخامس ق . م في داسكليومDascylium في غرب الأناضول يصور اثنان من المجوس الفرس (Magus, Magi) يقومان بتقديم أضحية، وكل منهما يمسك بحزمة من العصى (ربما كانت جذوع نبات ما) وأمامهما رأسا كبشين بينما يتدلى رأس الثور المذبوح (شعار ديانة ميثرا) من أعلى المذبح، وكانا يرتديان نفس غطاء الرأس أو القناع الذي وصفه سترابون[٢]. وهذا الشكل من الطقوس يمكن القول بأنه بعيد كل البعد عن الميثرائية الرومانية.

وإذا كان للديانة الميثرائية الرومانية بعض الجذور في ديانة ميثرا الفارسية، فمن المستبعد أن يكون الرومان قد استعاروا هذه الملامح مباشرة من الزرادشتية، بل غالباً ما أخذوا عن الشكل الهللنيستي للديانة، والذي فيه تحولت الميثرائية إلى ديانة أسرار ثم أخذت شكلها الروماني النهائي.

فعندما اتخذ ملوك فارس من الزرادشتية ديانة رسمية لهم اضطر كهنة الديانة القديمة المجوس (Magi) إلى الهجرة إلى مناطق جديدة مثل بابل وسوريا، حيث نشروا عبادة ميثرا.

وفي الفترة ما بين فتوحات الإسكندر إلى بداية الإمبراطورية الرومانية (٣٣٠ ق. م ـ ٢٧ ق . م) حدث تطور كبير فيما يخص ديانة ميثرا، فقد تحول ميثرا إلى إله لا يخضع لإله آخر أو حتى يتساوى معه كما في حالة «أهورا مزدا» وأصبح هو الإله الرئيسي لملوك الأناضول وجنوب سوريا، حتى أنهم أطلقوا على أنفسهم اسم ميثرا نفسه بما يحمله من إشارة إلى الحرب والنصر على الأعداء. وتحت حكم الملوك الميثرا داتيين التقت الثقافات اليونانية والفارسية في الأناضول، وقد اتبع آخر ملكين ميثرا داتيين وهما ميثرا داتيس الخامس والسادس ـ اللذان حكما وسط

(١) Strabo, XV, 3. 15.

(٢) M. Vermaserem, Mithras: The Secret God, New York 1963, p. 21, fig. 1.

الأناضول في الفترة من ١٥٠ ـ ٦٣ ق. م ـ سياسة مفادها التشبه والإقتراب من الحضارة الهللينستية والرومانية، ولذا فإن العديد من ملامح الديانة الميثرائية الرومانية تظهر تأثيراً يونانياً، وحتى الصيغة اللاتينية لإسم الإله Mithras غالباً ما أخذت عن الشكل اليوناني له MLOPES[(١)].

ويوجد دليل أدبي على أن الديانة الميثرائية كانت ديانة سرية حتى فيما قبل الرومان خلال القرن الأول ق. م في الأناضول، فيخبرنا بلوتارخ أن قراصنة كيليكيا الذين هاجمهم بومبيوس في ٦٧ ق. م يضحون بأضحيات غريبة ويقومون بطقوس تكريسية غامضة للإله ميثرا على جبل يسمى Olympos في ليكيا[(٢)].

كما يوجد دليل أدبي آخر على أن ديانة ميثرا في الأناضول كانت ديانة أسرار، فعندما زار تريداتيس Tiridates ملك أرمينيا روما في ٦٦ م ليقسم على الولاء للإمبراطور نيرون، يقول بليني بأنه قد أشرك معه الامبراطور في وجبة مقدسة، كما يقول ديوكاسيوس بأنه أقسم بإلهه ميثرا[(٣)].

ولا تثير فرضية أن الأناضول هي مهد ديانة ميثرا السرية الدهشة، لأن الأناضول وسوريا كانتا مهد ديانة كيبيلي وأتيس، والإلهة السورية اتارجاتيس Atargatis، وقد أصبحتا ديانتان سريتان.

وهكذا فقد انتقلت ديانة ميثرا السرية من الامبراطورية الفارسية إلى ملوك الأناضول، ومنهم إلى الإمبراطورية الرومانية حوالي ١٠٠ م حيث انتشرت انتشاراً واسعاً.

أما عن الفترة الزمنية التي استغرقتها ديانة ميثرا، فيبدو أنها قد استمرت حوالي الألفي سنة، فأقدم ذكر لميثرا وجد في قصر حيثى في آسيا الصغرى على أحد الألواح التي تعود إلى القرن الرابع عشر ق. م، حيث سجلت معاهدة بين الحيثيين وجيرانهم

---

(١) Howard Teeple, op. cit., pp. 5 - 6.

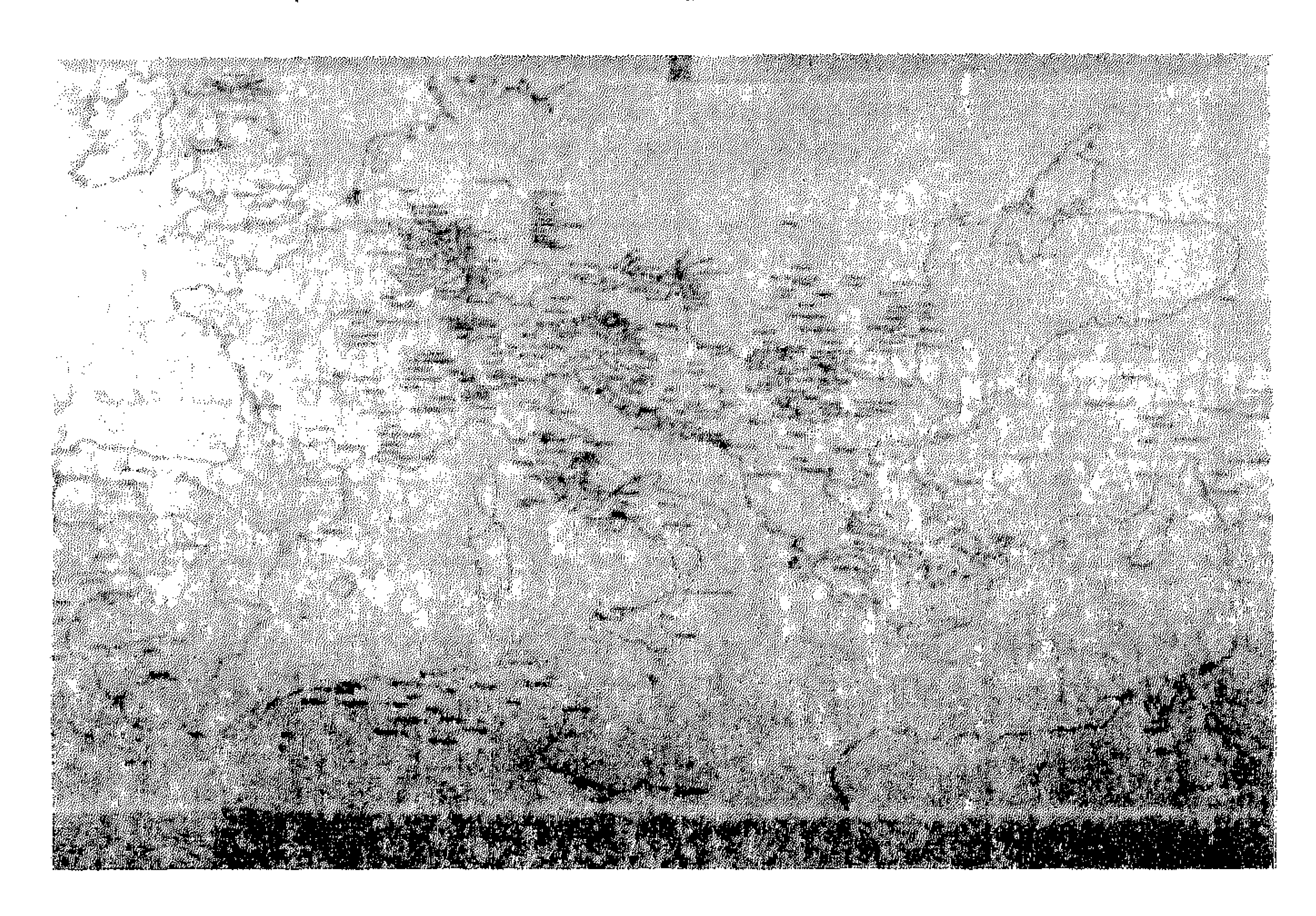
(٢) Plutarch, vitae, Pompey, 24. 7.

(٣) Pliny, N. H., 30. 1. 6; Dio Cassius, 62 [63]. 5. 2.

الميتانيين، وكان ميثرا هو حامي المعاهدة.

ثم انتقلت هذه الديانة إلى روما عن طريق الأناضول وحظيت بانتشار واسع خاصة من القرن الثاني الميلادي وحتى الرابع، حتى أنها أصبحت منافساً خطيراً للمسيحية وتحولت إلى الديانة المسيطرة على الإمبراطورية الرومانية[١].

ويظهر الشكل رقم (١٥) خريطة موضح عليها أكثر من أربعمائة موقع في العالم الروماني وجدت بها معابد لميثرا أو أشياء مقدسة ترتبط به، ولا شك أن العدد الأصلي يفوق ذلك بكثير، ففي روما وحدها كان يوجد حوالي مائة مكان مقدس لميثرا، وعلى الأقل خمسة عشر مكان في أوستيا ميناء روما القديم[٢].



شكل رقم (١٥) معابد أو أماكن مقدسة للإله ميثرا في العالم الروماني

(١) Lowis Hopfe, the Cult of Mithra, Religion and Ethics Institute, Evanston, U. S. A.. 1976, p. 1.

(٢) Ibid., p. 2.

وطبقاً للمصادر القديمة والتي تؤكدها الأدلة الأثرية، فقد كان هناك سبع مراحل يمر بها من يعتنق ديانة ميثرا، ولكل مرحلة كوكب يحميها من الكواكب السيارة السبعة التي ارتبطت بالإله ميثرا، وهذه المراحل حسب تطورها من أسفل إلى أعلى هي:

١ ـ غراب ويحميه كوكب عطارد.

٢ ـ عروس ميثرا ويحميه كوكب الزهرة.

٣ ـ جندي ويحميه كوكب المريخ.

٤ ـ أسد ويحميه كوكب المشتري.

٥ ـ فارس ويحميه القمر.

٦ ـ رسول الشمس ويحميه الشمس.

٧ ـ الأب (أو كاهن ومعلم الديانة) ويحميه كوكب زحل[١].

ويبدو أن كل واحدة من هذه المراحل كان لها طقوس تكريسية معينة تغلب عليها صفة السرية كأغلب ديانات الأسرار، لكن يمكن القول أنها كانت تبدأ بتجرد عبدة ميثرا من ملابسهم ثم تطهير أنفسهم بحرارة النار حتى يولدوا ـ رمزياً ـ من جديد، وغالباً ما كان هذا الطقس يتم مع شروق الشمس حتى يولد الشخص مع أول ضوء. وربما كان الدخول لمرحلة «جندي ميثرا» على سبيل المثال يتم عن طريق اختبار شجاعة الشخص ومدى كفاءته إذا ما تم لمسه بالنار.

وبعد ذلك يشارك المتعبدون في تناول وجبة مقدسة تتكون من الخبز والنبيذ الممزوج بالماء ترمز إلى دم وجسد الثور المقدس والتي ستضمن لهم حياة أبدية سعيدة بعد الموت. ويبدو أن هذه الوجبة اعتبرت طقساً سرياً، لذلك فنادراً ما صورت في الفن، إلا أن الشكل رقم (١٦) يظهر لنا نحتاً غائراً يعود للقرن الرابع الميلادي من معبد لميثرا في يوغوسلافيا السابقة (مفترض أنه محفوظ بمتحف سيراييڤو) يوضح هذا الطقس: الأشخاص الواقفون يرتدي كل منهم قناعاً يوضح

---

(١) Lewis Hopfe, op. cit. p. 5.

رتبته في الديانة وهم من اليسار إلى اليمين: الغراب، الفارس، الجندي والأسد، أما الإثنان المصوران في الوسط مضطجعان على أريكة ومغطيان بجلد الثور المقدس فربما كانا رسول الشمس والأب[١].



شكل رقم (١٦) الوجبة المقدسة للإله ميثرا

ومن الواضح أن الميثرائية كانت شائعة بين عدد من أباطرة الرومان. ، فقد نالت تأييدهم ودعمهم المادي والمعنوي مثل: كومودوس، سبتميوس سفيروس، كاركلا وديوكليتيان. وعندما تولى قنسطنطين العرش في ٣١٢ م تبنى المسيحية كديانة للإمبراطورية الرومانية وأبطل عبادة ميثرا. إلا أن جوليان عندما تولى العرش (٣٦١ ـ ٣٦٣ م) أعاد هذه العبادة، إلا أنها لم تعد بنفس قوتها السابقة، وشهدت السنوات التالية بضع تقدمات لميثرا، إلا أن الديانة السرية كانت من الناحية العملية قد ماتت وهدمت معابدها وبنيت فوقها كنائس جديدة[٢].

(١) Ibid., p. 6.

ايزيس وسارابيس:

نشأت ديانة ايزيس وسارابيس بشكلها اليوناني الروماني في مصر مع بداية حكم ملوك البطالمة، وكانت عبارة عن توليفة من ديانات الأسرار اليونانية مع مزجها بعناصر من الديانة المصرية القديمة، ومن مصر انتشرت هذه الديانة في حوض البحر المتوسط حتى وصلت شمالاً إلى ألمانيا وبريطانيا. وقد أصبح نفوذها من القوة ـ خاصة خلال بدايات الإمبراطورية الرومانية ـ إلى حد أن أصبحت منافساً خطيراً للمسيحية الوليدة. وفي الديانة المصرية القديمة التي انبثقت عنها ديانة ايزيس وسارابيس وجدت ثلاثة آلهة هامة هي ايزيس وأوزوريس وحورس.

وكانت الإلهة ايزيس هي المعبود الرئيسي في هذه الديانة، ويظهر الشكل رقم (١٧) تمثالها الموجود بمتحف الكابيتول في روما، والذي احتفظ بالكثير من خصائصها المصرية مثل تاج اللوتس وعقدة ايزيس على الصدر والشخاشيخ «Sistrum». أما الإله الثاني فكان سارابيس الذي لم يلعب دوراً هاماً في الديانة المصرية القديمة، ومن الواضح أن بطلميوس ومستشاروه لم يخلقوا هذا الإله من العدم، لتحقيق أهدافهم السياسية، وإنما في الغالب كان هو الإله المحلي لقرية راكوتيس التي بنيت مكانها الإسكندرية، وقد اشتق إسمه من الصيغة Osorapis أو Osiris - Apis التي توحى بصلته بالإله أوزوريس من جهة، وبالإله ابيس من جهة أخرى، وهو الثور المقدس لمدينة منف[1].

(١) Robert Wild, the Isis - Sarapis Cult, Religion and Ethics Institute, Evanston, U. S. A., 1978, pp. 1 - 3. cf. R. E. Wilt, Isis in the Ancient world, Ithaca, Cornell University Press, 1971, passim.



شكل رقم (١٧) الإلهة إيزيس

أما ثالث الآلهة فكان حورس الذي انتشرت عبادته في مصر الفرعونية خاصة في الدولة الحديثة، ووصلت إلى أقصى انتشار لها في العصرين اليوناني والروماني.

ويوضح الشكل رقم (١٨) خريطة لأماكن انتشار ديانة ايزيس وسارابيس السرية في العالم اليوناني الروماني، وهي أماكن انتشرت من يورك في بريطانيا وأمبورياس في إسبانيا غرباً إلى أنطاكية والأقصر شرقاً.



شكل رقم (١٨) معابد أو أماكن مقدسة للإلهة إيزيس في العالم اليوناني الروماني

أما عن العبادة أو طقوس هذه الديانة السرية فهي تبدأ كل صباح حيث يجهز الكهنة تمثال الإلهة للطقوس الصباحية، ويصف لنا أبوليوس تجربة واحد من عبدة ايزيس قائلاً:

«ذهبت إلى المعبد، وعندما انكشفت الستائر البيضاء وظهر تمثال الإلهة، بدأت في الصلوات أمام وجه الإلهة المقدس، وفي هذه الأثناء كان الكاهن يقوم بالطقوس المقدسة على كل المذابح الموجودة، مع تلاوة صلاة خاشعة مهيبة، ثم أحضر الماء المقدس من الحجرة الداخلية للمعبد، وقدم تقديمات[١].

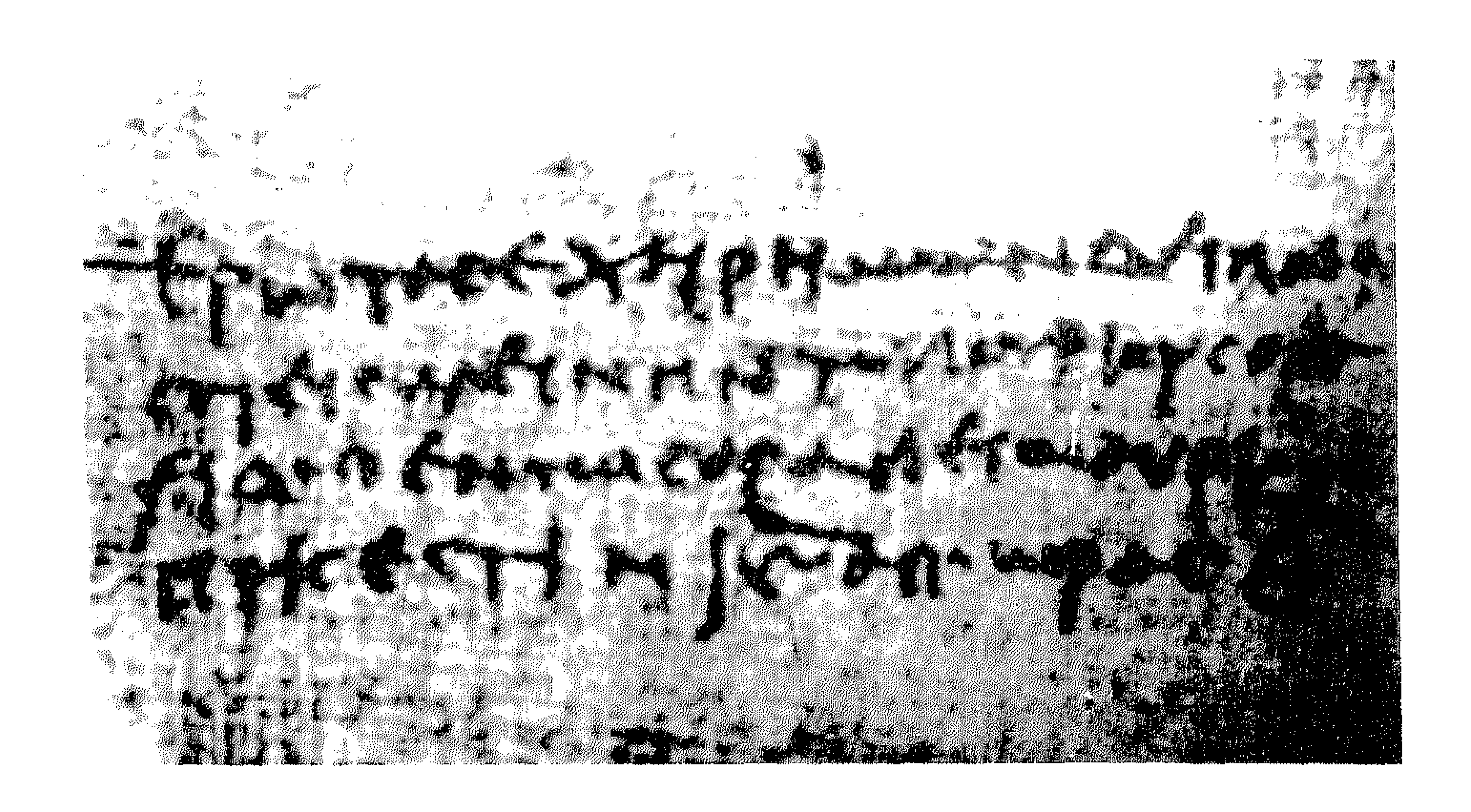
ومثل كل الديانات السرية عرفت ديانة ايزيس وسارابيس الوجبة المقدسة، حيث كانت تقدم لمن يعبدهم أمام تمثال الإله أو الإلهة أو أمامهما معاً، والشكل رقم (١٩) يظهر بردية من القرن الثاني الميلادي عبارة عن دعوة لحضور احدى هذه الوجبات، وتقول الدعوة:

«خايريمون يدعوك للعشاء على مائدة سارابيس المعظم في السيرابيوم غداً،

---

(١) Apuleius, Metamorphses, 11. 20.

الخامس عشر، في الثالثة بعد الظهر[1].



شكل رقم (١٩) دعوة لحضور إحدى الوجبات المقدسة للإله سارابيس

في النهاية يمكن القول بأن ديانة ايزيس وسارابيس قد تطورت من ديانة مصرية محلية، إلى ديانة عالمية، وكديانة أسرار يونانية استمرت حوالي السبعة قرون (٣٠٠ ق. م ـ ٤٠٠ م)، لكن كما سبق القول فقد كانت جذورها المصرية أقدم من ذلك بكثير. وساعد على إنتشارها نوعية الفكر الديني الذي قدمته، فقد أمنت هذه الديانة لمن يعتنقها الرفاهية والحماية والخلاص الأبدي، وبذلك نافست العديد من ديانات الأسرار الأخرى، بل ونافست حتى المسيحية في صورتها الأولى[2].

الأسرار الأورفية

الأورفية هي حركة يونانية ذات طابع فلسفي ديني، تأسست أصلاً في اليونان وكريت وجنوب إيطاليا، فأورفيوس لم يعبد كإله، ولم تكن لهذه الديانة معابد، ورغم هذا فقد كان لها معتقدات دينية محددة وطقوس للتطهير والتكريس كما كان

---

(١) P. OXY., 110. cf. Robert wild, op. cit., p. 5.

(٢) Robert wild, op. cit., p. 7.

لها مبشروها الجوالون. ورغم أن الأورفية لم تكن منظمة بشكل جيد، إلا أن أغلب الدارسين يصنفونها ضمن ديانات الأسرار(١).

وأورفيوس كما يظهر في الأساطير هو موسيقى من ثراكيا، حصل على الخلود، وأقدم إشارة له تعود إلى القرن السادس ق. م، أما الديانة الأورفية فقد كانت ديانة المنطق والنظام والزهد والتصوف، وهو إتجاه معاكس تماماً للفجاجة التي ظهرت في ديانات سرية أخرى، مثل ديانة كيبيلى وديونيسوس، وهذا ما ميز الموسيقى والشعر والطقوس الأورفية، فقد كانت تعارض سفك الدماء وتدعو إلى السلام.

وكان للديانة الأورفية السرية أساس فلسفي، كما كان لها أساس ديني، فمثلهم مثل الفيثاغوريين، آمنوا بفكرة تقمص الروح، وأن الأرواح تُقبر أو تحبس داخل الجسد (الجسد ما هو إلا مقبرة الروح)، كما آمنوا بالثواب والعقاب في حياة أخرى، ودعوا إلى الطهارة والإمتناع عن أكل اللحم، حتى يعيش الإنسان والحيوان في سلام.

ويبدو أن إحتمال تأثر الفيثاغورية بالديانة الأورفية هو احتمال قائم، فبالإضافة إلى هذا التشابه، فقد نزح فيثاغورس في أواخر القرن السادس ق. م إلى شمال إيطاليا حيث كان للديانة الأورفية تواجد بارز ومحسوس(٢).

وربما تعود شهرة أورفيوس كموسيقى ومغنى إلى أن التعاليم الأورفية كانت قد وضعت في شكل قصائد شعرية تغنى بمصاحبة الموسيقى وتنسب إلى أورفيوس بشكل تقليدي، وقد كان أفلاطون أول من اقتبس من هذه القصائد(٣).

---

(١) Larry Alderink, Orphism, Religion and Ethics Institute, Evanston, U. S. A., 1980, p. 1 and note 1.

(٢) Ibid., pp. 1 - 2.

(٣) Plato, symposium, 179 d.; Eurpides, Alcestis, 357; cf. Lary Aldermk, op. cit., p. 2 and notes 3 - 5.

وتلعب حادثة موت أورفيوس كما وردت في الأساطير دوراً هاماً في ديانته، حيث مزقت عابدات ديونيسوس من الماينادز Maenads جسد أورفيوس وهن في حالة من الجنون المقدس الذي ينتابهم أثناء أدائهم لطقوس ديانة ديونيسوس السرية، ويفسر بعض الدارسين هذه الأسطورة بالموقف العدائي الذي أخذته الأورفية من النساء، فقد رفض كهنة أورفيوس انضمام النساء إلى هذه الديانة، بالإضافة إلى أن أورفيوس نفسه كان قد شجع الرجال على هجر نسائهم[١].

وطبقاً للأسطورة فقد قطعت النساء رأس أورفيوس، فطفت الرأس على سطح الماء حتى وصلت إلى جزيرة لسبوس، وتم وضعها على مذبح هناك حيث استمرت تغني وتنظم الأشعار وتتنبأ بالمستقبل لمن يستشيرها. ويظهر الشكل رقم (٢٠) رسماً على إناء فخاري يعود إلى أواخر القرن الخامس ق. م، ويظهر الإله أبو للو هنا ممسكاً بقيثارته وهو يستشير رأس أورفيوس التي تقوم بالتنبؤ له، مما يوحي بأن هذا المكان قد أصبح مركزاً للتنبؤ مثل دلفي، ويوضح تطور الديانة إلى ديانة أسرار.

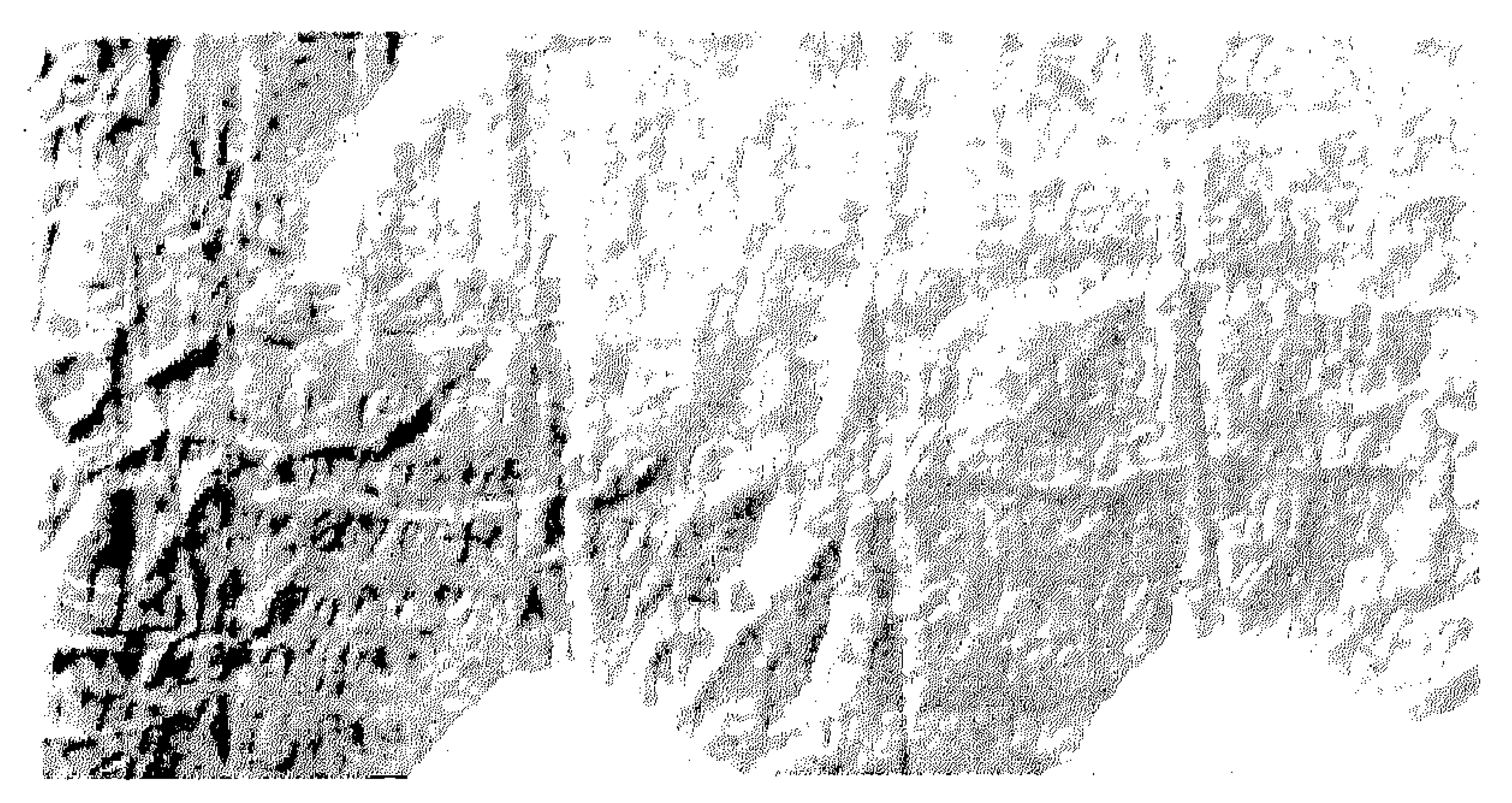


شكل رقم (٢٠) الإله أبوللو يستشير رأس أورفيوس

(١) Lary Aldermik, op. cit., p. 3.

لقد حقق أورفيوس الخلود لنفسه ـ كما تقول الأسطورة ـ وهكذا فهو سيحققه لمن يتبعه، ويظهر هذا واضحاً من الأشياء التي كانت تدفن مع من اعتنق الأورفية. فقد كانت فكرة الأورفية عن الروح أنها تأتي من الهواء وتستقر في الجسد[(1)]، فالجسد هو عقاب الروح، وإذا ما عاشت الروح حياة أخلاقية طاهرة ومارست التعاليم الأورفية، فسيتحقق لها الخلود وتحيا سعيدة في العالم الآخر، بعكس الأرواح الأخرى التي قامت بأفعال دنسة فتعاقب إلى الأبد.

ولما كانت الروح في حاجة إلى من يرشدها في العالم الآخر، فقد كان يدفن مع من اعتنق الأورفية ألواح أو رقائق من الذهب مكتوب عليها بعض التعليمات للروح، وقد تم اكتشاف العديد منها في كريت وشمال إيطاليا، وتعود إلى الفترة ما بين القرن الرابع ق. م وحتى القرن الثاني الميلادي[(2)]. ويُظهر الشكل رقم (٢١) إحدى هذه الرقائق من بيتيليا Petelia بجنوب إيطاليا وتعود إلى القرن الرابع إلى الثالث ق. م وهي تحذر الروح من أن تشرب من نبع النسيان لدى دخولها إلى هاديس بل يجب أن تشرب من بحيرة الذكريات حتى تظل على صلة بوجودها السابق، وهذا يؤكد مرة أخرى فكرة تقمص الأرواح في الديانة الأورفية.



شكل رقم (٢١) رقيقة نقشت عليها بعض النصائح للأرواح الأورفية

(١) Aristot., De Anim, I. 5. 410 b. 28; cf. Apollonius Rhodius, Argonautica, I. 494 - 502.

(٢) W. K. . C Guthrie, Orpheus and Greek Religion, Methuen 1952, p. 173.

أما عن العبادة نفسها وطقوسها الغامضة فيبدو أن اتباع الأورفية كانوا يجرون طقوسهم وهم عراة، رمزاً للطهارة والنقاء، فالإنسان يدخل العالم عند ولادته عارياً ويتركه عارياً، ثم يولد من جديد كروح طاهرة عارية أيضاً[1].

ويبدو أن الأورفية قد أثرت إلى حد ما في اليهودية والمسيحية، وبخاصة فكرة العيش بسلام على الأرض. والشكل رقم (٢٢) يظهر لنا قطعة من الفرسكو تعود إلى منتصف القرن الثالث الميلادي وجدت في معبد يهودي بمدينة ديورا ـ أيوروبوس Dura - Europos بالعراق مثل عليها المسيح بملابس بارثية يجلس على عرش وأمامه اثنان من الكتبة، وفي أسفل اللوحة يجلس أبناء يعقوب الإثني عشر (رمز الكواكب الاثني عشر في السماء عند الأورفيين) وإلى أعلاهم صور أورفيوس ممسكاً بقيثارته وبجانبه أسد وبعض الحيوانات الأخرى التي جلست في صمت وسلام تستمع إلى غنائه[2].



شكل رقم (٢٢) فرسكو من معبد يهودي (منتصف القرن الثالث الميلادي)

(١) Larry Aldernk, op. cit., p. 6.

(٢) Larry Alderink, op. cit., p. 7. cf. old Testament, Gen., 48 - 49.

وانتشرت هذه الفكرة (فكرة العيش بسلام على الأرض) في المسيحية، فاقترن أورفيوس كصانع للسلام بالمسيح كداعية له، ويظهر هذا المزيج على قطعة من الموزاييك (شكل رقم ٢٣) وجدت في طرطوس تعود إلى النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، وغالباً كانت جزءاً من أرضية كنيسة، والموزاييك يمثل أورفيوس ومعه الحيوانات المفترسة التي أصبحت وديعة تماماً، وكونه يظهر في كنيسة دليل واضح على إقترانه بالمسيح.



شكل رقم (٢٣) موزاييك من طرطوس (أرضية كنيسة من القرن الثالث الميلادي)

ديانة كيبيلى وأتيس السرية

كيبيلى الأناضولية هي إلهة الجبال والغابات خاصة في فريجيا (وسط تركيا حالياً)، وكانت تصور غالباً بصحبة عدد من الأسود التي اشتهرت بها منطقة فريجيا. وقد انتشرت ديانة كيبيلى في مدن مثل سارديس، فوكايا، وسميرنا وبيرجامون، وهي مدن استوطنها اليونانيون الأيونيون، والذين بالتالي حملوا معهم كيبيلى إلى مختلف أجزاء حوض البحر المتوسط. وبحلول القرن السابع ق. م أصبحت كيبيلى معروفة تماماً لليونانيين.

وكان رفيق كيبيلى في الأساطير هو أتيس وهو راع للأغنام من فريجيا، وحسب الأسطورة فقد قادته كيبيلى إلى الجنون، فقام بقطع أعضاؤه التناسلية ومات[١].

ويُظهر الشكل رقم (٢٤) الإلهة كيبيلى وهي تبكي حبيبها أتيس ثم تقوم بتحويله إلى شجرة صنوبر أو سرو، والقصة كما هو واضح ترتبط بالجنس كرمز لإستمرارية الحياة، ودورة النبات من نمو ثم موت ثم بعث من جديد، بالإضافة إلى أن شجر الصنوبر أو السرو الدائم الإخضرار كان رمزاً للحياة الدائمة الخالدة.



شكل رقم (٢٤) الإلهة كيبيلي تبكي حبيبها أتيس

وفي عبادة كيبيلى وأتيس أي في الطقوس الغامضة، كان جنون أتيس، ونواح كيبيلى نموذجاً أو مدخلاً للرقصات المتهتكة وطقوس الخصى، ثم مراسيم الدفن والتي كانت تصاحبها المزامير والصنوج والطبول. وربما كانت قصة ميلاد أتيس وموته والتي ارتبطت في فريجيا بالقتل والجنون والخصاء غير مقبولة إلى حد ما في بلاد اليونان، لذا فقد تمحورت الديانة في اليونان حول كيبيلى، وأصبح أتيس غير

(١) Paul Gehl, Cybelle and Attis, Religion and Ethics Institute, Evansten, U. S. A., 1980, pp. 1 - 2.

ذي أهمية، فعلى حين وجد معبد لكيبلى في أثينا يعود إلى القرن السادس ق. م، وغيره في دلفى وطيبة وبيرايوس تعود إلى فترات أسبق، لم يرد ذكر أتيس في اليونان ـ فيما قبل العصر الروماني ـ إلا ثلاث مرات فقط[١].

وقد أضاف اليونانيون رفيقاً غير أتيس للإلهة كيبيلى، ففي اتيكا على سبيل المثال كان رفيقها بان وأحياناً نمفيس، وفي أيونيا كان رفيقاها: شاب صغير يحمل إناء ماء (هيرميس)، وفتاة تحمل مشعلاً (هيكاتى). وكان الشكل اليوناني لعبادة كيبيلى رصينا عن مثيله الفريجي الذي حفل بالرقصات المتهتكة وطقوس الإخصاء، وكان الطقس ينتهي في الغالب بمأدبة يشارك فيها الجميع يتناول الوجبة المقدسة[٢].

ثم انتقلت ديانة كيبيلى إلى روما في ٢٠٤ ق. م، وذلك عندما تم نقل تمثال للإلهة إليها حيث قوبلت بترحاب كبير. فعندما كانت إيطاليا تقاسى مرارة الحروب البونية ظهرت نبؤة في روما تقول بأن الغزاة الأجانب محكوم عليهم بالهزيمة المنكرة إذا ما نقلت الإلهة كيبيلى إلى روما، فرحلت بعثة رومانية في ٢٠٥ ق. م إلى بيرجامون وطلبت من الملك اتالوس الأول نقل تمثال الإلهة إلى روما، حيث وصلتها في إبريل ٢٠٤ ق م، ووضع التمثال في معبد النصر على تل البالاتين حتى تم بناء معبد خاص لها افتتح في ١٩١ ق. م. وكان يقوم على رعايته كاهن اسيوي يشترط فيه أن يتم خصاؤه في إشارة إلى الأسطورة القديمة[٣].

وحتى عصر أوغسطس وخليفته تبيريوس كانت ديانة كيبيلى تكاد تكون ديانة ارستقراطية، ويعتبر الإمبراطور كلوديوس (٤١ ـ ٥٤ م) أول من حاول تحويل هذه

---

(١) Paul Gehl, op. cit., p. 2.

(٢) M. J. Vermaserem, Cybelle and Attis, Myth and Cult, thames and Hudson, London 1976, p. 62 FF.

(٣) Paul Gehl, op. cit., pp. 3 - 4.

وتم تحديد العيد السنوي للإلهة كيبيلى بتاريخ وصولها إلى روما أي ١٤ أبريل، بالإضافة إلى ١٠ أبريل وهو تاريخ افتتاح معبدها وكان هذا العيد يشتمل على مواكل ومآدب واحتفالات درامية.

الديانة إلى ديانة تشترك فيها طوائف عدة من الشعب، كما تزايد الإهتمام بأتيس رفيق كيبيلى وتم إضافة يومين للعيد السنوي للإحتفال به، ففي اليوم الأول من الإحتفال كان معتنقوا الديانة يتوجهون إلى الغابة المقدسة ويقومون بقطع أفرع من شجر الصنوبر (وهو من رموز أتيس) وتحمل في موكب إلى معبد كيبيلى حيث تزين، وفي اليوم التالي يقوم الكهنة والكاهنات بتمثيل طقوس الإخصاء، ثم يقوموا بدفن أفرع الصنوبر التي ترمز لأتيس[(١)].

ويعتبر معبد كيبيلى وأتيس في أوستيا من أكبر معابدها ويعود إلى منتصف القرن الثاني الميلادي، وعثر فيه على تمثال يمثل أتيس الذي انتصر على الموت (شكل رقم ٢٥)، وقم تم إهداؤه إلى المعبد في فترة حكم انتونينوس بيوس (١٣٨ ـ ١٦١ م)، وأتيس هنا يرمز للبعث والخلاص، والتمثال مزين بالأزهار وحبوب القمح وأغصان الصنوبر ونبات الخشخاش، والكل بالطبع يوحى بفكرة دورة النبات وخصوبة الأرض.



شكل رقم (٢٥) أتيس الذي أنتصر على الموت

(١) وربما كان هذا أصل فكرة شجرة الكريسماس عند المسيحيين الغربيين.

وتنفرد ديانة كيبيلي بوضع متميز بين ديانات الأسرار العديدة، فقد كانت ضمن الديانات الرسمية للدولة خلال العصر الجمهوري، كما أنها حظيت بإهتمام العديد من الأباطرة فيما بعد على مدى ثلاثة قرون تقريباً. وقد أضاف الإمبراطور انتونينوس بيوس إلى هذه الديانة طقساً جديداً يسمى Taurobolium ويتضمن التضحية بأحد الثيران، وربما كان هذا تأثير آسيوي، وأحياناً ما كان يتم الإحتفاظ بالأعضاء التناسلية للثور. وخلال الفترة الأخيرة من القرن الثالث وربما الرابع الميلاديين، أخذت التضحية شكلاً يشبه تعميد اتباع كيبيلي بدم الأضحية[1].

أسرار الإلهة السورية

وهي ديانة ازدهرت في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال الفترة من القرن الأول ق. م وحتى القرن الثاني الميلادي، ومع بداياتها لم تكن هذه الديانة سرية، لكن التأثير اليوناني حولها إلى ديانة سرية، على الأقل في بعض أماكن مثل ثورى Thuri في اليونان.

وكانت الآلهة السورية تدعى «اتارجاتيس» Atargatis، لكنها عرفت في العالم الروماني بإسم «الألهة السورية» Dea Syria.

انتشرت عبادة الإلهة السورية في الشرق الأدنى في مدن مثل هييرا بوليس Hierapolis أو المدينة المقدسة بالقرب من نهر الفرات، وحلب وصيدا وبطلمية واسكالون، وإلى الشمال الشرقي من البحر الميت في مملكة الأنباط في «خربت تنور «Khirbet Tannur»، وفي بالميرا وديورا ـ ايوربوس Dura Europos[2] بالقرب من نهر الفرات، وفي مدينة بارثية تسمى «هاترا» Hatra فيما بين دجلة والفرات.

وحمل العديد من التجار ديانة الإلهة السورية اتارجاتيس إلى كثير من مناطق

---

(١) Paul «Gehl», op. cit., p. 7.

(٢) تم تأسيس ديورا ـ ايوروبوس كحصن عسكري سليوقي حوالي ٣٠٠ ق. م، ثم ازدهرت بسبب موقعها التجاري الهام، وفتحها الرومان ١٦٥ م.

العالم الجديد، بالإضافة إلى مجموعات من الخصيات كانت تتجول في المنطقة داعية إلى هذه الديانة، والذين اكتسبو سمعة سيئة بسبب قيامهم بجلد أنفسهم أثناء أدائهم لطقوس هذه الديانة، وعلى ما يبدو فقد احتوت هذه الديانة على الكثير من تعاليم الزهد الجنسي، رغم أن اتارجاتيس قد عرفت بأنها إلهة الخصوبة في البر والبحر[1].

ويوضح الشكل رقم (٢٦) الإلهة اتارجاتيس مع رفيقها حداد Hadad في نحت بارز وجد في بقايا معبدها في ديورا ايوروبوس ويعود لحوالي القرن الثاني الميلادي، وقد خضعت مدينة ديورا ايوروبوس للعديد من المؤثرات السورية واليونانية الرومانية واليهودية والمسيحية، وفي مثل هذا المجتمع المتعدد التأثيرات كان طبيعياً أن تزدهر ديانة اتارجاتيس، وهنا تبدو الإلهة جالسة بين أسدين، ويظهر حداد جالساً على عرش وبجانبه أحد الثيران، والملاحظ أنه قد صور في حجم أصغر من الإلهة نفسها.



شكل رقم (٢٦) الإلهة أتارجاتيس ورفيقها حداد

(١) Apuleius, Metamorphoses, VIII.

أما أصل هذه الديانة فهو غير واضح، فالإلهة اتارجاتيس ورفيقها حداد يحملان ملامح من الآلهة الميسوبوتامية والسورية والكنعانية، فأتارجاتيس تشبه إلى حد بعيد كيبيلى الفريجية، وعشتار البابلية، ويبدو أن اسمها قد أتى من إضغام لعدد من الأسماء، مثل الإلهة الكنعانية عشتارت وإنات والشرى، أما إسم حداد فيبدو أنه قد أتى من الإله البابلي اداد[1]. وأحياناً ما كانت اتارجاتيس تدعى «دركتو» Derketo، فيخبرنا ديودوروس الصقلى أنها كانت تعبد تحت هذا الإسم في مدينة اسكالون مع حيوانها البحري المقدس «الدرفيل»[2].

وكانت جزيرة ديلوس أحد أشهر مراكز ديانة اتارجاتيس، ففي الفترة التالية للقرن الثاني ق. م تحولت ديلوس إلى مركز تجاري وديني في بحر إيجة وبخاصة أنها تحولت إلى سوق عالمية للعبيد، وغالباً فقد أدخل تجار العبيد السوريون هذه الديانة إلى الجزيرة.

ويظهر في الشكل رقم (٢٧) معبد الإلهة اتارجاتيس في الجزء العلوي إلى اليمين فوق المسرح (منظر من الجو)، وكان المعبد يحتوي على بحيرة مقدسة تربى فيها الأسماك أحد رموز هذه الديانة، والتي غالباً ما كانت تشكل العنصر الأساسي في الوجبة المقدسة التي يشارك فيها أتباع اتارجاتيس.

---

(١) Robert Oden, the Syrian Godess, Religion and Ethics Institute, Evanston, U. S. A., 1980, p. 2.

(٢) تقول الأسطورة أن اتارجاتيس سقطت في بحيرة فتحولت إلى درفيل وتحولت ابنتها سميراميس إلى حمامة، ولهذا كان الدرفيل والحمام من الرموز المقدسة في ديانتها.
cf. Diod. Sicul., II, 4, 2 - 6; II, 20, 1 - 2; Ovid, Metam., IV, 44 - 48.



شكل رقم (٢٧) معبد الإلهة أتارجاتيس في جزيرة ديلوس (أعلى اليمين)

ومما يؤكد استمرارية هذه الديانة لفترة طويلة اكتشاف بعض قطع من العملات البرونزية سكت في عصر الإسكندر سفيروس(٢٢٢ ـ ٢٣٥ م) وعلى وجهها صورة الإمبراطور، وعلى الظهر صورت اتارجاتيس مع رفيقها حداد، وتحتهما نقش يقول «الآلهة لأهل هيرابوليس» .[١].

ويبدو أن الطقوس الغامضة لديانة اتارجاتيس لم تكن منتظمة أو محددة تماماً، إلا أنه وجد على الأقل عدد من الكهنة الخصيان يهتمون بتمثال أو صورة الإلهة، الذي كان يُغسل مرتين في العام كطقس تطهيري يقوم به عبدتها بمصاحبة الرقص والموسيقى حتى يتحولون إلى حالة من الإنجذاب المقدس، وقد يقوم بعضهم بقطع أعضاؤهم التناسلية، أو على الأقل يتظاهرون بذلك، ثم ينتهي الإحتفال بوجبة مقدسة غالباً ما كان أحد عناصرها هو السمك[٢].

(١) Robert Oden, op. cit., p. 4.

(٢) Ibid., pp. 4 - 7; cf. Nelson Glueck, Deities and Dolphins, New York 1965, pp. 316, 338 - 339.

ديانات الأسرار والمسيحية

تثير مشكلة العلاقة بين ديانات الأسرار القديمة والمسيحية الكثير من الجدل، مثلها في ذلك مثل كل المشكلات الدينية. فوجهة النظر المسيحية التقليدية تقول بأن الديانات الوثنية التي تعد تابعيها بالخلاص، وبحياة أبدية سعيدة بعد الموت، لم يكن لها أي تأثير على المسيحية، لأن القبول بمثل هذا التأثير يصيب المسيحية نفسها في مقتل.

ولهذا فقد تمت عدة محاولات لتفسير التشابه الواضح بين بعض الأفكار والطقوس المسيحية ومثيلتها في ديانات الأسرار، وأقدم هذه المحاولات يعود إلى القرن الثاني الميلادي وقام بها القديس «جوستين» والذي قال بأن الديانات السرية هي التي أخذت عن المسيحية وليس العكس، إلا أن هذا الرأي لا يستحق حتى عناء مناقشته لأن الأدلة الأثرية والتاريخية تثبت أن ديانات الأسرار هذه تعود إلى ما قبل المسيحية بكثير.

والتفسير الأحدث لكليمنت السكندري يقول بأن كتاب المسيحية الأوائل استعملوا اصطلاحات وألفاظ معروفة ومتداولة في المجتمع الوثني حتى يمكنهم الوصول إلى المتلقى العادي البسيط، وبهذا الرأي يمكن تفسير التشابهات اللفظية، لكن مشكلة تشابه بعض المعتقدات والطقوس في حاجة إلى تفسير[1].

ومع بدايات القرن العشرين ساد التفسير القائل بأن آباء الكنيسة الأول قد إستعاروا معتقداتهم وطقوسهم الأساسية من الديانات السرية القديمة، وبالتالي فمن الممكن القول بأن المسيحية نفسها ليست إلا ديانة سرية أخرى[2]. ولحساسية الموضوع فيجب مناقشته بحذر ولكن بشكل موضوعي تماماً.

---

(١) Justin I Apology, 66; Clement of Alexandria, Exhortation to the Greeks, 12.
cf. Howard Teeple, the Mysrey Religion and christianity, Religion and Ethics Institute, Evanston, U. S. A., 1980, p. 1.

(٢) Howard Teeple, op. cit., pp. 1 - 2.

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن هو: هل نظر المسيحيون الأول إلى ديانتهم على أنها ديانة سرية؟.

تجدر الإشارة هنا إلى أن آباء الكنيسة الأول قد استعملوا ألفاظاً مثل «سر مملكة الإله»[1]، و«كلمة الإله»، و «السر المخبأ لقرون طويلة ثم تم كشفه للقديسيين»[2]، إلا أنه رغم استعمال مثل هذه الألفاظ، فالسرية هنا تعبر عن تفسير لمعتقد مسيحي، وليس مجموعة من الطقوس الغامضة كما في الديانات السرية، وبالتالي يمكن القول أن المسيحيون الأول لم ينظروا إلى ديانتهم على أنها ديانة سرية.

هذا بالإضافة إلى بعض الإختلافات الواضحة بين الطقوس المسيحية والطقوس الغامضة للديانات السرية مثل:

- في الديانات السرية يتم التكريس والتلقين بشكل سري، بينما في المسيحية تتم الطقوس بشكل علني.
- لم تمارس المسيحية التضحية بالحيوانات كما في طقوس الديانات السرية.
- الرموز المقدسة التي ظهرت في الديانات السرية لم تتواجد بشكل واضح في المسيحية.

ويمكن تصنيف بعض أوجه التشابه بين المسيحية والديانات السرية على أساس نوعين من التشابه:

النوع الأول: تشابه عرضي يتمثل في الملامح المشتركة بين هذين النوعين من الديانة، مثل فكرة التآخي بين أتباع كل ديانة منهم، وفكرة التعميد أو التكريس والتلقين والتطهير بواسطة الماء. إلا أنه يمكن القول بأن التعميد المسيحي بدأ بشكل مستقل عن الديانات السرية، فقد ارتبط في الأساس بفكرة التوبة التي ربما توحى

---

(١) New Testament, Mark 4: 11..

(٢) Colossians 1: 16; cf. I Cor. 2: 7.

بأصول يهودية[1]، أو بموت النفس الشريرة وحلول النفس الصالحة محلها في الجسد[2].

أما فكرة قيام المسيح وصعوده إلى السماء فقد قامت بمعزل عن الديانات السرية، هذا رغم وجودها في ديانة ميثرا مثلاً، وربما ارتبطت أكثر باليهودية التي كان أتباعها يعتقدون أن الله قد أخذ إلى جانبه عدداً من أنبياء اليهود[3].

ورغم هذا لا يمكن إنكار أن هناك بعض الملامح في المسيحية الأولى تمت استعارتها من الديانات السرية، فقد كان المسيحيون الأول بالطبع من الوثنيين الذين تمت هدايتهم، وفي الغالب كانوا إما من أتباع إحدى الديانات السرية أو على الأقل لديهم إلمام ما بها، وبالتالي فقد كان طبيعياً أن تنعكس أفكارهم القديمة على الديانة الجديدة.

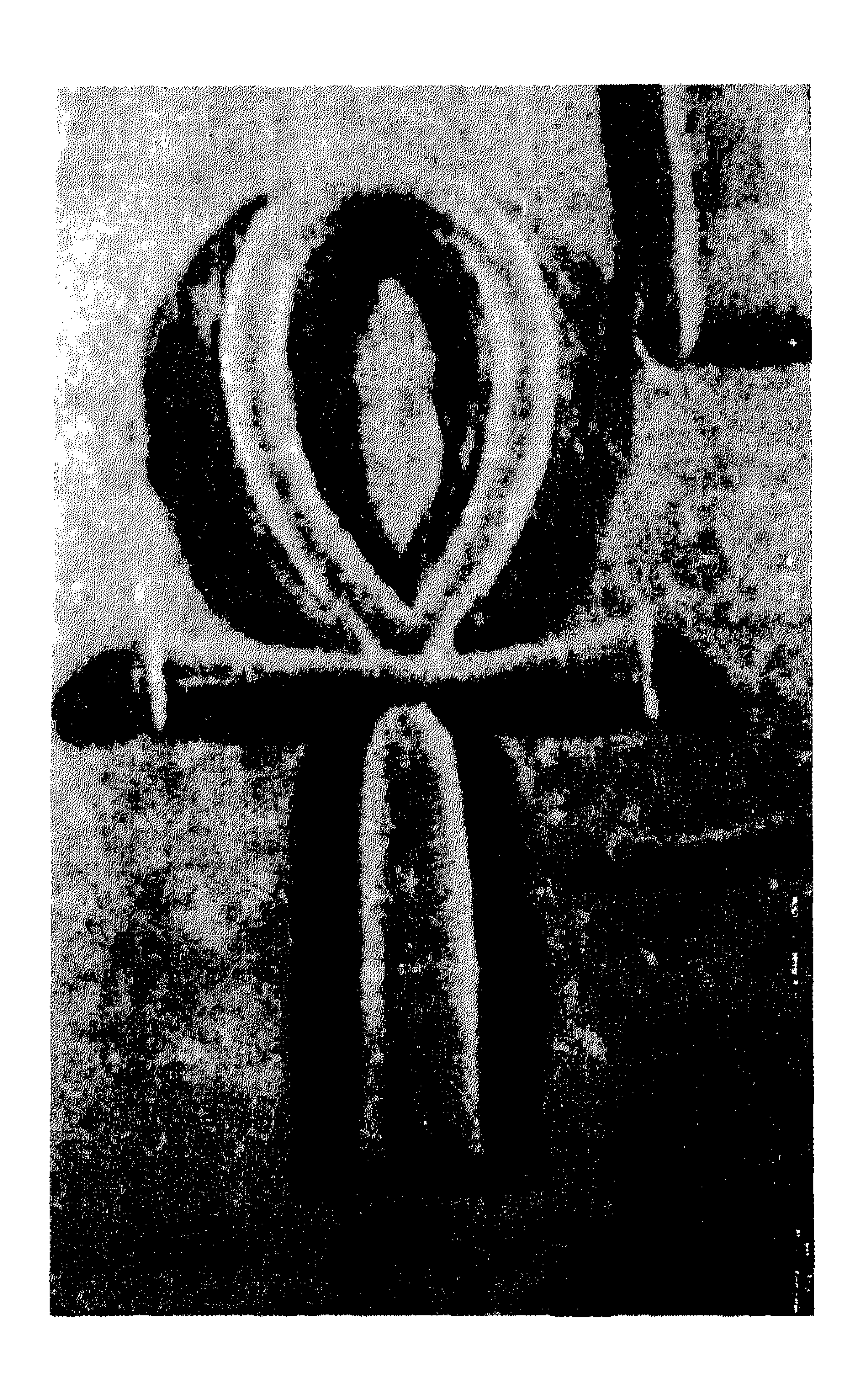
ويبدو هذا التأثر واضحاً في الفن المسيحي في مراحله الأولى، والمثال الذي سنستخدمه هنا هو ما يعرف بإسم الصليب المصري، وهو تعديل لعلامة الحياة «عنخ» في مصر القديمة، والتي تظهر في الشكل رقم (٢٨) من دعامة على عمود يعود إلى أوائل الألف الثاني ق. م،

---

(١) Acts 2: 38.
cf. Howard Teeple, op. cit., p. 2.

(٢) Rom., 6: 2 - 4.

(٣) I Cor., 15: 5; II Kings, 2: 11.



شكل رقم (٢٨) عنخ علامة الحياة في مصر القديمة

وقد استمر استعمال هذا الشكل في ديانة ايزيس وسيرابيس السرية التي تعاصرت مع المسيحية في جزء منها. ويظهر الشكل رقم (٢٩) جزء من لوحة جنائزية Stela لأحد الأقباط المصريين تعود إلى القرن الخامس إلى السابع الميلادي، ويظهر فيها عدة أشكال للصليب المسيحي، إلا أن الصلبان في الأسفل توضح أنها تعديل قبطي لعلامة الحياة.



شكل رقم (٢٩) الصليب المصري

ورغم عداء المسيحية الشديد للديانات الوثنية، فقد ظهرت عدة آلهة من آلهة هذه الديانات في الفن المسيحي ـ خاصة القبطي ـ حتى القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وبصفة خاصة ديونيسوس وأورفيوس. ويظهر الشكل رقم (٣٠) الإله ديونيسوس مرسوماً على لوحة من القماش القبطي تعود إلى القرن الخامس الميلادي، ويظهر حول رأسه الهالة التي ابتدعها الفنانون الوثنيون ورسموها حول رؤوس الهتهم وملوكهم، ثم اقتبسها الفنانون المسيحيون وصوروا بها المسيح والقديسين.



شكل رقم (٣٠) الإله ديونيسوس (قماش قبطي)

هذا بالإضافة إلى أن الإلهة ايزيس كثيراً ما صورت وهي تعتني بطفلها حورس، وسميت Isis Lactans، وهو النموذج الذي احتذاه الفنان المسيحي في تصويره للعذراء وهي تعتني بطفلها المقدس وسميت Mary Lactans أو Madonna Lactans، كما صوّر المسيح نفسه في العديد من المناسبات على أنه أورفيوس أو ميثرا أو إله الشمس يقود عربته المجنحة في السماء[1].

يضاف إلى هذا تصوير الفنان المسيحي للولائم التي كان عنصريها الأساسيين هما الخبز والنبيذ، وهي الولائم المقدسة التي ظهرت وميزت كل الديانات السرية القديمة (القربان المقدس)[2].

---

(١) Howard Teeple, op. cit., p. 4.

(٢) Justin I Apology, 66.

cf. Samuel Angus, the Mystery Religion and christianity, London 1925, Passim.

وتتأكد استعارة المسيحية لبعض ملامح الديانات السرية القديمة من اختيار آباء الكنيسة ليوم ٢٥ ديسمبر عيداً لميلاد المسيح، فمع ملاحظة أن التاريخ الأصلي غير مؤكد، تجدر الإشارة إلى أن هذا التاريخ هو عيد ميلاد الإله ميثرا[١] .

أما النوع الثاني من التشابه فهو التشابه في الأفكار، خاصة فكرة الخلاص أو الحياة الأبدية المباركة في العالم الآخر، والتي لا تتحقق إلا بالتعميد والتكريس والتلقين، وعضوية الديانات السرية، وما ينتج عن ذلك من ميلاد روحي جديد. وهي الفكرة الأساسية في المسيحية، لكن ديانات الأسرار سبقتها إلى تلك الفكرة بعشرة قرون على الأقل.

ويستمر إنتشار المسيحية حتى تظهر موجة الإضطهاد المعروفة ضد المسيحية في القرن الثالث الميلادي، حين يتولى قسطنطين العرش، فيتبنى سياسة معتدلة حاولت التوفيق بين المسيحية والديانات الوثنية الموجودة، وبالتدريج بدأ يميل إلى المسيحية فبدأ في تشجيع إنشاء الكنائس، وبالمقابل منع ترميم أو إنشاء معابد جديدة، ثم تبعه أبناؤه الثلاثة في نفس الإتجاه، فأصدر الإبن الثاني له قراراً يمنع تقديم الأضحيات الوثنية في إيطاليا، أما الثالث فقد أصدر قراراً بإغلاق المعابد، وهكذا بدأت هذه الديانات السرية في الاحتضار.

وظهرت بارقة أمل عندما تولى الإمبراطور جوليان العرش فألغى كل القرارات والمراسيم الإمبراطورية المضادة للديانات الوثنية، لكن لم يستمر هذا الأمل إلا ثلاث سنوات هي مدة حكم جوليان. ، فقد مات في إحدى المعارك مع الفرس. وعندما تولى بعده جوڤيان الحكم أعاد للكنيسة كل امتيازاتها السابقة، ثم يكاد الصراع ينتهي بإرتقاء الإمبراطور ثيودوسيوس العرش، فقد أصدر في ٣٩١ قراراً بتحريم الديانات الوثنية.

وبنهاية القرن الخامس الميلادي حسمت المعركة تماماً لصالح المسيحية إلا من العديد من ملامح ديانات الأسرار التي دخلتها وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من

---

(١) Howard Teeple, op. cit., p. 6.

تركيبتها اللاهوتية[1].

خاتمة

مما سبق يتضح أن أقدم ديانات الأسرار يعود إلى حوالي القرن السادس عشر قبل الميلاد (الأسرار الإليوسية)، وأحدثها يعود إلى الفترة من القرن الثالث إلى الثاني قبل الميلاد (ديانتا إيزيس وسارابيس والإلهة السورية اتارجاتيس)، واستمر الإهتمام بهذه الديانات حتى القرن الرابع الميلادي، أي أن بعض هذه الديانات قد استمر تواجده على الساحة ما يقرب من الألفي عام.

وقد ظهرت هذه الديانات كرد فعل للقصور الذي شاب الديانات التقليدية الرسمية أو شبه الرسمية في العالم اليوناني، والتي اهتمت أساساً بمظاهر الحياة الدنيوية، فأتت ديانات الأسرار لتتبنى فكرة الخلاص الروحي، وتعد اتباعها بحياة أبدية سعيدة خالدة في العالم الآخر.

وباستثناء الأسرار الإليوسية والديونيسية والأورفية فقد كانت مصر ومنطقة الشرق الأدنى القديم بما فيها آسيا الصغرى هي مهد ديانات الأسرار والتي هي في الأصل تقديس لعناصر الطبيعة المختلفة والمؤثرة في حياة الإنسان، وكان ضمان الخصب ونمو المحاصيل هدفاً أساسياً لها. وفيما عدا الأورفية وديانة الإلهة السورية اتارجاتيس، فقد كان الجنس يحتل مكانة هامة في هذه الديانات كتعبير عن إستمرارية الحياة.

وفي العصر الهللنيستي اتصلت الديانات الشرقية بمثيلتها اليونانية وأثرت فيها وأخذت عنها القليل، وبالتالي يمكن القول أن كل ديانات الأسرار التي احتوت على عناصر شرقية وغربية معاً قد تكونت عن طريق انتقالها من الشرق إلى الغرب وليس العكس.

---

(١) Ibid., p. 7.

وقد غلب على هذه الديانات الطابع الشخصي الفردي، فهي ديانات تحقق منفعة مباشرة لمن يعتنقها، كالوعد بالخلاص الشخصي أو الخلود بعد الموت، ولذلك فرغم أن هذه الديانات كانت متاحة أمام الجميع، إلا أنها في نفس الوقت كانت منغلقة على من يتبعها فقط، وبالتالي تحولت طقوسها إلى طقوس سرية (عكس الديانات التقليدية ذات الطقوس العلنية) تحتوي على أشكال غريبة من الرقص والموسيقى والغناء والتضحية بالحيوانات ثم استخدام دمها في التعميد، والصيام لفترات معينة، والتطهر بالماء، والإشتراك في وجبات جماعية مقدسة.

وكنتيجة لهذا الطابع الفردي الشخصي الذي حملته هذه الديانات، فقد انتشرت بشكل واضح، حتى أنه أمكن تحديد حوالي الأربعمائة موقع مقدس في العالم اليوناني الروماني كان يعبد فيها ميثرا وهو أشهر آلهة الديانات السرية، يضاف إلى هذا أن ديانة مثل ديانة كيبيلى، وأتيس أصبحت بسبب انتشارها من الديانات الرسمية للجمهورية الرومانية، واستمرت كذلك حتى الثلاثة قرون الأولى من العصر الإمبراطوري.

وقد تعاصرت أغلب الديانات السرية مع المسيحية في شكلها الأول، واستمر هذا الإحتكاك على الأقل لأربعة قرون، مما أدى إلى تسرب بعض أفكار هذه الديانات إلى المسيحية، مثل فكرة الموت ثم البعث (القيام)، والحياة بسلام على الأرض، كما انتقلت العديد من طقوسها الغامضة أيضاً إلى المسيحية، كالتطهير بالماء، والتعميد، والوجبة المقدسة (دم وجسد الأضحية) التي تحولت إلى القربان المقدس، إلى حد أن تم اختيار عيد ميلاد الإله ميثرا ليصبح هو عيد ميلاد المسيح (٢٥ ديسمبر). هذا طبعاً بالإضافة إلى استعمال الفنان المسيحي للعديد من الرموز والأشكال وطرق التصوير الخاصة بالديانات السرية.

Select Bibliography

- Eve and John Harris, the Orintal Cults in Roman Britain, Leiden: Brill, 1965.
- Gerald Friedlander, Hellenism and Christianity, P. Vallentine, London 1912.

- Harold willooghby, Pagan Regeneration, A study of Mystery Initiations in the Graeco - Roman world, Chicago, the University of Chicago Press, 1929.
- Javier Teixidor, the Pagan God, Popular Religion in the Graeco - Roman Near east, Princeton, Princeton university Press, 1977.
- John Ferguson, the Religions of the Roman Empire, Ithaca, Cornell University Press, 1970.
- Martin Nilsson, A history of Greek Religion, New York 1964.
- Idem., the Dionysiac Mysteries of the Hellenistic and Roman Age, Lund: C. W. K. Gleerup 1957.
- Richard Reitz enstein, Hellenistic Mystery - Religios. Their Basic Ideas and Significance, Pittsburgh: Pickwick Press, 1978.
- Samuel Angus, the Religious Quests of the Graeco - Roman world, New York 1929.
- Sharon Kelly Heyob, the cult of Isis among women in the Graeco - Roman world, Leiden: Brill, 1975.

Photos Credits

Fig. 1. Paul Getty Museum, after Edgar Krentz.

Fig. 2. After Edgar Krentz.

Fig. 3. Vatican Museum, after Edgan Krentz.

Figs. 4, 5. After Howard Teeple.

Fig. 6. After A. Parrot, Les Phéniciens, Paris 1975, plate 12.

Figs. 7 - 10. After David Aune.

Figs 11 - 12. After Susan Cole.

Fig. 13. After A. Parrot, pl. 143.

Fig. 14. After Susan Cole.

Figs. 15 - 16. After Lewis Hopfe.

Fig. 17. Capitoline Museum, after Paul Gehl.

Fig. 18. Capitoline Museum, after Robert wild.

Fig. 19. After Robert wild.

Fig. 20. After A. B. Cook, zeus, vol. 3, pl. XVI.

Fig. 21. After Guthrie, Orpheus and Greek Religion, pl. 8.

Figs. 22, 23. After Larry Alderink.

Figs. 24, 25. After Paul Gehl.

Fig. 26. Yale University Art Gallery, after Robert oden.

Fig. 27. After R. V. Scholder, Ancient Greece from the Air, London 1974.

Fig. 28 - 30 After Howard Teeple.

الفصل الرابع
الماسونية

الماسونية هي جمعية سرية قديمة، بل قد تكون أقدم الجمعيات السرية التي عرفت، ورغم كثرة ما كتب عنها إلا أن الغموض الشديد لا يزال يعترى مسالك أصحابها ومنهجها، بل قل إن قصارى ما عرف من مبادئها هو ما جاء في أحاديث كبار أعضائها وخطباء محافلها[١].

ومعظم المعلومات التي تطرحها الكتب المتداولة عن الماسونية، أو تلك الموجودة في دوائر المعارف، مثل دائرة المعارف البريطانية، ودائرة المعارف الأميركية، ودائرة المعارف السوفيتية، تختلف كلية عن المعلومات التي تضمها كتب الماسونية الموجودة في المكتبات الماسونية المنتشرة في الولايات المتحدة الأميريكية وأوروبا، والتي لا يسمح بارتيادها لغير الأعضاء الماسون[٢].

ورغم أن السلطات النازية كانت قد صادرت المكتبات الماسونية في ألمانية بغية الوقوف على أسرارها، وكشف المعلومات الخفية عن الماسونية، لكن يبدو أن تلك السلطات فشلت في إتمام هذه المهمة، سيما وأن الماسونية سرعان، ما اتخذت إسماً جديداً لها هو: «نادي الفرسان الألمان»، ولا أحد يعرف على وجه الدقة، هل تم إتلاف تلك المكتبات وحرق ما فيها من كتب ووثائق، أم أن تلك الكتب والوثائق تم إخفاؤها في مكان ما ثم انتقلت إلى نوادي الفرسان الألمان، فيما بعد، بطريقة أو

---

(١) مقدمة أسرار الماسونية: ص ٥٢٤

(٢) الماسونية تحت المجهر ص ٨١٧.

بأخرى؟

وما كتب عن الماسونية بالعربية لا يكاد يربو على بضعة عشر مؤلفاً كتب معظمها في النصف الأول من هذا القرن، كما أن معظمها لم يعد طبعه أما كتاب مثل «الأسرار الخفية للجمعية الماسونية» الذي كتبه شاهين ماريوس سنة ١٩٠٠، فقد ظهرت طبعته الثانية فجأة عام ١٩٨٣[١]

وقد شهدت السنوات القليلة الماضية ظهور عدة كتب عربية جديدة عن الماسونية، وهي إما كتابات تمتدح الماسونية حيث كتبها نفر من أنصارها مثل شاهين مكاريوس، أو جورجي زيدان، وإما كتابات ناقدة تهاجم الماسونية بشدة[٢]. خصوصاً من جانب أولئك الذين ارتدوا عن الماسونية وتركوها مثل د. محمد علي الزعبي[٣] وهناك طائفة ثالثة اعتمدت التحليل الموضوعي العلمي، منها كتاب ظهر في انجلترا عام ١٩٨٣ بعنوان الإخوة The Brotherhood لمؤلفه «ستيفن نايت» وقد أحدث ضجة كبيرة بسبب الطريقة التي انتهجها مؤلفه في توثيقه واستقصاء المعلومات التي اعتمد عليها من أفراد من الماسون اشترطوا عدم ذكر أسمائهم ومعظمهم من المنخرطين في سلك الشرطة البريطانية! وكان من أخطر وأعجب ما جاء في كتاب «نايت» أن المخابرات السوفيتية قد نجحت في التسلل إلى شبكة المحفل، ونجحت في إحلال الكثيرين من أعضائها في مراكز حساسة من الأجهزة: السياسية والأمنية والإعلامية في بريطانيا وغيرها. وهذا يؤكد وجود علاقة وثيقة بين الماسونية والشيوعية، ولم تكن مثل تلك العلاقة واضحة قبل أن يشير إليها «نايت» في كتابه هذا[٤].

---

(١) الكتاب السابق ص ٨.

(٢) راجع «هذه الماسونية فاقتلعوا جذورها» تأليف خضر محمد ص ٩.

(٣) وهو الذي كتب: «الماسونية في العراء» ١٩٧٥.
راجع أيضاً: الماسونية محمد صفوت السقا (منشورات رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة ١٤٠٠ هـ).

(٤) وقد تعثر صدور هذا الكتاب، وتعرض صاحبه لكثير من المضايقات انتهت بموته في يوليو=

نشأتها:

جاءت التسمية من كلمة ماسون Masson التي تعني بالإنجليزية والفرنسية «البناء» وعادة ما يضاف إليها لفظ Free ومعناها «حر» أو Franc ومعناها «الصادق» فتصبح «Free masson» أو «Franc masson» وكان هذا الإسم يلفظ في العهد العثماني «فرمصون». ويقال أن الماسونية يهودية أباً وأماً وصهيونية روحاً ونشاطاً وهدفاً[1].

ومما يؤكد هذا الكلام ما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون: «وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشيء ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم وسنجذب إليها كل من يُعرف بأنه ذو روح عالية، وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي نحصل منها على ما نريد من أخبار كما ستكون أفضل مراكز للدعاية.

وقد ذهب اليهودي -جيمس أندرسون صاحب كتاب «القوانين» الذي طبع عام ١٧٢٣، وهو يعد أقدم الكتب الماسونية المعروفة إلى أن موسى عليه السلام هو الأستاذ الأعظم للماسون في القدس، بينما ذكر بعض أقطاب الماسون من أمثال جورجي زيدان وشاهين مكاريوس وإيليا الحاج أنها ترجع إلى أيام هيكل سليمان بل أكثرهم زعموا أن النبي موسى عليه السلام أسس الحركة وأن الملك سليمان عليه السلام هو الذي أقام المحفل الماسوني بالقدس وإن المراحل الماسونية الأولى وجدت في بابل.

بينما ذهب لويس شيخو إلى أنها نشأت في أول عهد النصرانية بغرض القضاء على الديانة المسيحية والتنكيل بالنصارى وإن مؤسسها هو ملك الرومان هيرودس أجريبا (توفي عام ٤٤ م) بمساعدة مستشاره اليهودي حيرام أبيود لذا فهم يعتبرون

= ١٩٨٥ أي بعد عام واحد من صدور كتابه وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، مما يشير بأصابع الإتهام إلى وجود جريمة وراء موته.

(١) هذه هي الماسونية فاقتلعوا جذورها: تأليف خضر محمد ص ٩.

حيرام مثل الماسونية الأعلى، وهو عريف البنائين الذين قاموا ببناء هيكل سليمان. وهذا ما ذهب إليه د. محمد الزعبي في كتابه «الماسونية منشئة ملك إسرائيل القسم الأول المطبوع في بيروت عام ١٩٥٦ حيث أشار إلى أن المؤسس الأول للماسونية التي جعلت مرادفها «القوى الخفية» بدأت عام ٤٣ ـ ٥٥ م عندما اجتمع الملك «هيرودوس أجريبا» مع مستشاريه «أحيرام أبيود» و «مؤاب لافي» وتآمروا فيما بينهم على المسيح الذي أخذ يبشر بزوال الهيكل. «بحيث لا يبقى فيه حجر على حجر إلا ينقض» وأنشأوا جمعية سرية باسم «القوة الخفية» مهمتها التخلص من المسيح وأتباعه ويزعم أنصار أسطورة ظهور الماسونية مع بداية بناء الهيكل، بأنه عندما تقرر بناء الهيكل، تم تقسيم البنّائين إلى ثلاث طبقات: المتمرنين، وأبناء المهنة، والأساتذة، وتشمل الطبقة الثالثة، الأساتذة ثلاثة أشخاص فقط هم سليمان، وحيرام: ملك صور، وحيرام آبى، أي حيرام الأب، والأخير كان يكنى بابن الأرملة أو صانع النحاس تميزا له عن حيرام ملك صور. وتمضى هذه الأسطورة فتزعم أنه قبل تمام بناء المعبد تآمر بعض الأشخاص من أبناء المهنة بغية اكتشاف أسرار الأساتذة، وقرروا أن يُعدوا كمينا لحيرام «صانع النحاس» عند باب المعبد. ولكن نفراً منهم تراجعوا في اللحظات الأخيرة، ولم يتبقى من المتآمرين سوى ثلاثة هم الذين قاموا بتنفيذ المؤامرة. وقد طلبوا من حيرام في أول الأمر أن يطلعهم على الأسرار، وهددوه بالقتل، وعندما رفض البوح لهم بما يعرف ضربه كل واحد منهم على رأسه، ثم حملوا جثته ودفنوها خارج الهيكل في جبل «مرياح». ثم بعد تمام بناء الهيكل تفرق «البناءون» الذين قاموا ببنائه، حيث أنشأوا جمعية الصناع الرومانية التي نقلت نظمها ورسومها فيما بعد إلى جمعيات الصناع في انجلترا وفرنسا وألمانيا في العصور الوسطى.

ويقال أن جذور الماسونية ترجع إلى كهنة المصريين القدماء وسحرتهم حيث كانوا يتعاملون بالإشارات والرموز ويخفون أسرارهم عمن لا ثقة لهم فيه، فتطورت هذه الإشارات لتأخذ في عهد اليونانيين والرومان مزيجاً من الرموز المغلقة الغامضة والتنظيمات السرية لدى جماعات كثيرة.

وقد أرجع البعض بدء الماسونية إلى الحروب الصليبية، وذُكر عن شارل مارتل الذي هزم المسلمين في وقعة بلاط الشهداء عام ٧٣٢ م أنه كان من أبرع الماسونيين، وكان يعد القيم الأكبر للماسونية. بينما يقرر البعض الآخر بأنها نشأت في زمن «بلدوين الأول» وهو أحد ملوك الحملة الصليبية وقد حكم بيت المقدس، حين اجتمع الكونت هيو دي باين الفارس الفرنسي وثمانية من الفرسان، وأقسموا فيما بينهم على تشكيل جمعية منهم تهدف إلى حماية الحجاج النصارى وحراستهم من الساحل حتى مدينة بيت المقدس. وقد وافقهم بلدوين ومنحهم داراً قريبة عُرفت عندهم باسم هيكل سليمان. أو «معبد سليمان» ولهذا عرفوا باسم «فرسان الداوية أي «فرسان المعبد»، وما لبث أن ظهرت نشاطات مريبة لجمعية شبيهة وحليفة لجمعية فرسان المعبد، وهم طائفة «الإسماعيلية» الذين يصفهم وليم الصورى، رئيس أساقفة صور، والمؤرخ الصليبي المعروف بأنهم لا يلتزمون بالشريعة الإسلامية، رغم إدعائهم الانتساب إليها، ولا يتورعون عن ارتكاب المحارم، قائلاً:

فهم يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير، ولا يصومون رمضان مع المسلمين، وهم لذلك أقرب للنصارى.

وقد وضع الإسماعيلية أسساً ومبادىء لجمعيتهم السرية تلك، على نظام دقيق للغاية، فقد رتبوا أصول الدعوة السرية ترتيباً محكماً على أساس استعداد الناس فللعامة تعاليم وللخاصة تعاليم أخرى، ولخاصة الخاصة تعاليم سرية لا يعلمها إلا الخاصة، ولا يعلم أسرار الجمعية إلا رؤساؤها وزعماؤها، ولا يصل الفرد منهم إلى مرتبة الزعامة إلا إذا اجتاز امتحاناً قاسياً، وأقسم بأغلظ الإيمان على الوفاء للجمعية والكتمان الشديد.

وقد عزا بعض الكتاب أصول الماسونية التاريخية لرسائل (إخوان الصفا)، تلك الجمعية السرية التي نشأت في البصرة في القرن الرابع للهجرة، والذين كتب أعضاؤها رسائلها الأثنتين والخمسين في شتى أنواع المعرفة.

ويمكن تقسيم تاريخ الماسونية إلى مرحلتين.

١ ـ المرحلة الأولى: أو الماسونية القديمة.

ولا نستطيع تحديد بدايتها على وجه الدقة، ولكنها تميزت بأن أعضاء الجمعيات الماسونية فيها كانوا من العمال في حرفة البناء. وقد وصلت تلك المرحلة إلى عصرها الذهبي في القرون الوسطى، التي شهدت حركة تشييد الكنائس والكاتدرائيات على نطاق واسع خاصة في بريطانيا. وقد اعتاد عمال بناء هذه الأبنية الخاصة على كتمان أسرار مهنتهم وعدم قبول أحد من الدخلاء فيها، حتى أن أسرار مهنتهم كانوا يتوارثونها جيلاً بعد جيل. وكان أولئك العمال يقضون أوقات راحتهم في أماكن خاصة قريبة من مواقع العمل، سميت «بالمحافل» حيث كانوا يتبادلون الأخبار، ويطرحون مشاكلهم على بساط البحث، ويناقشون الأمور المتصلة بمهنتهم وأسرارها، وحماية مصالحهم المشتركة.

٢ ـ المرحلة الثانية أو الماسونية الحديثة «الرمزية»

وبدأت عام ١٦٠٠ في اسكتلندا وفي نهاية القرن السابع عشر، حيث كانت الحركة مقتصرة على الأرستقراطية. وفي ١٤ يونيو ١٧١٧ تقرر توحيد المحافل التي كان عددها قد وصل إلى أربعة محافل في لندن، في محفل واحد سمى «المحفل الأعظم»«The United Grand Lodge» ولا يزال موجوداً إلى الآن له مجلة دورية تنشر فكره تسمى Aro Buarteyr Conorium. وجدير بالذكر أن الماسونيين منذ تأسس المحفل الأعظم أطلقوا على أنفسهم إسم البنائين الأحرارFree massons وجعلوا شعارهم: الحرية، الإخاء، المساواة.

وفي سنة ١٧٢٣ ظهر أول كتاب في الماسونية، الذي ألفه اليهودي جيمس أندرسون، واسمه «القوانين» وجاء فيه «أن الماسوني كان يلقن ألا يظهر بمظهر الملحد الغبي، وأن يحترم السلطات المدنية، وألا يشترك في الحركات السياسية!»

وهو الذي زعم أن المؤسس الأول للمحفل الماسوني هو موسى عليه السلام، وأن الملك سليمان عليه السلام كان هو الأستاذ الأعظم للمحفل الماسوني في

القدس!

«ومن أقدم الوثائق التي تتعلق بالماسونية، تلك التي تضمنت المسؤوليات The charges والتي كتبها داود كاسلي بخط يده، وتاريخها هو سنة ١٧٣٤ م، وهي محفوظة في المتحف البريطاني. قسم الأناجيل خزانة ١٧ رف A، وقد ورد فيها:

«على كل عضو جديد يدخل الجمعية أن يبايع القيم عن طريق المصافحة باليد، ثم يتم تسليمه نسخة من المسؤوليات:
وهذه المسؤوليات أو الوصايا تقول شعراً:

«يتعين على الأخ «العضو الجديد»، حبيب الرب والكنيسة المقدسة، تبجيل سيده الذي يصحبه، وليحفظ المبادىء الثلاثة كما يحفظ روحه التي بين جنبيه، ولا يخطو خطوة دون أخذ رأى سيده الذي يجب عليه أن يتبعه في الأهداف النبيلة، ولا يكشف أمره، ولا يبوح لأحد بسره، ولا يحيد قيد أنملة عما يصدر إليه من أوامر من المحفل مهما كانت الظروف، وفي أي مكان كان». ومن بريطانيا انتشر الوباء الماسوني في كل مكان، وتحت إشراف ذلك المحفل الأعظم تم تأسيس:

١ ـ أول محفل ماسوني في جبل طارق عام ١٧٢٨
٢ ـ أول محفل ماسوني في باريس عام ١٧٣٢
٣ ـ أول محفل ماسوني في ألمانيا عام ١٧٣٣
٤ ـ أول محفل ماسوني في البرتغال عام ١٧٣٥
٥ ـ أول محفل ماسوني في سويسرا عام ١٧٤٥
٦ ـ أول محفل ماسوني في هولندا والدانمرك ١٧٤٥
٧ ـ أول محفل ماسوني في الهند عام ١٧٥٢
٨ ـ أول محفل ماسوني في إيطاليا ١٧٦٣
٩ ـ أول محفل ماسوني في بلجيكا ١٧٦٥
١٠ ـ أول محفل ماسوني في روسيا ١٧٧١
١١ ـ أول محفل ماسوني في السويد ١٧٧٣

وقد ظهرت الماسونية للمرة الأولى في أميركا مع مجيء المستعمرين الانجليز والأسكتلنديين والأيرلنديين في أوائل القرن الثامن عشر. وفي عام ١٩٠٧ بلغ عدد المحافل الكبرى في أميركا ما يزيد على خمسين محفلاً يتبعها آلاف المحافل العادية تضم عضوية أكثر من مليون أمريكي.

ولمعرفة مدى قوة الماسونية الحديثة فإنه بلغ عدد المحافل في عام ١٩٥٢ تسعة آلاف محفلاً تابعة للمحافل الرئيسية الثلاثة (الانجليزية والأسكتلندية والأيرلندية).

وهناك نوعان من الماسونية في الغرب:

الماسونية التقليدية: أو المحافظة Conservative M، وهي التي تتسم بها محافل بريطانيا وألمانيا والدول الإسكندنافية والولايات المتحدة الأميركية، وليس لها نشاطات ظاهرة معارضة للحكومات. والماسونية الحديثة Modern M وهي الموجودة في فرنسا، وجنوب أوروبا، وأميركا اللاتينية ولها أنشطة سياسية متعددة.

الماسونية التوراتية:

استطاعت الماسونية استقطاب آدم وايز هاوبت Adam Weishaupt، حيث استماله المرابون اليهود في أوروبا في مؤسسة روتشيلد المالية (وهم ملوك الحال اليهودي لوضع مخطط على أسس حديثة لتحقيق حلم اليهود في السيطرة على العالم. وكان آدم وايز هاوبت أستاذاً جامعياً بجامعة انجولد أشتات الألمانية، وكان نصرانياً ثم ألحد، وهو رجل داهية استطاع اليهود استغلاله بنجاح فقام بوضع مشروعه عام ١٧٧٦ الذي يقوم على أساس السعي إلى تدمير جميع الحكومات والأديان الموجودة بتقسيم الجويم «أي غير اليهود» إلى معسكرات متنازعة تتصارع صراعاً دائماً فيما بينها دون توقف مع تسليح هذه المعسكرات بعد تكوينها، واختلاق الأحداث التي تؤدي إلى انقضاض بعضها على بعض بغرض إضعاف غير اليهود وإستنفاذ قوتهم وتحطيم الحكومات وإزالة المبادىء الدينية.

ولتنفيذ هذا المخطط أسس آدم وايز هاوبت جماعة التوراتيين وادعى أن هدفه هو الوصول إلى حكومة عالمية تتكون من أصحاب القدرات الذهنية والفكرية المتميزة، ممن عرف عنهم التفوق والنبوغ.

واستطاع أن يجمع حوالي ألفين من كبار الساسة والمفكرين والمتفوقين في مختلف الميادين وأسس بهم (محفل الشرق الأكبر) حيث تم إخضاع هؤلاء النابغين المتفوقين لخدمة أهداف الماسونية. وقد وقعت في أيدي رجال حكومة باڤارياBavaria نسخة من مخططات وايز هاوبت لتنفيذ مؤامرته تحت فكرة العالميةInternationalism عام ١٧٨٤، فأغلقت الحكومة محفل الشرق الأكبر عام ١٧٨٥، واعتبرته خارجاً على القانون، ثم نشرت تفاصيل المؤامرة عام ١٧٨٧، وعرضت على كبار رجال الدولة والكنيسة، ولكن تغلغل التوراتيين ونفوذهم استطاع تمييع القضية ثم إخفاؤها ونسيانها.

استقطبت اليهودية الجنرال الأميركي ألبرت مايلس والذي كان قد سرح من الجيش، وأوكلت إليه مهمة وضع الخطط التنفيذية للماسونية، وقد انتهى عام ١٧٨١ بالفعل من دراسة المخططات الماسونية السابقة، ووضع أفكار تطويرها، وقد اشتمل المخطط على قاعدتين.

القاعدة الأولى:

الاعتماد على المخططات السابقة والإنطلاق من حيث انتهت وتنظيم الحركات العالمية التخريبية على مستوى العالم وفي مناطق مختلفة منه؛ حيث تقوم على الإلحاد وتتبناها الماسونية: وهي الشيوعية والفاشية والصهيونية العالمية مع حشد كل الطاقات والإمكانات اليهودية لدعمها سراً وجهراً، وذلك عن طريق سلسلة متوالية من الثورات تعم مناطق العالم وتنتهي بنشأة هذه الحركات.

القاعدة الثانية:

الإعداد لحروب عالمية ثلاث بغرض تأمين نتائج المؤامرة:

١ ـ فتؤمن الحرب العالمية الأولى: الإطاحة بالحكم الملكي في روسيا وجعل روسيا معقلاً تتمركز فيه الشيوعية الملحدة يعقبها إتمام بناء الشيوعية على أسس مذهبية، والإنطلاق بها إلى أرجاء الأرض لنسف الكيانات القومية والوطنية وسحقها وتدمير المعتقدات الدينية والمبادىء الأخلاقية.

وقد نجح الماسونيون في ذلك وأقاموا الحكومة الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧ عقب الثورة البلشفية، ويتم تدعيمها لتصبح القوة العالمية الثانية في العالم.

٢ ـ تؤمن الحرب العالمية الثانية. إجتياح الشيوعية لنصف العالم ووصولها في قوتها لمعادلة ومساواة مجموع قوى العالم الغربي، كما يتم تضخيم الحركة الصهيونية سياسياً بإقامة دولة إسرائيل في فلسطين تمهيداً للمرحلة الثالثة والأخيرة من المؤامرة.

وقد تم ذلك فصارت روسيا بعد الحرب العالمية الثانية قوة عظمى منافسة للغرب ولها أتباع في أوروبا وآسيا ودول العالم الثالث وجردت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا من مستعمراتها وأقيمت دولة إسرائيل في فلسطين وأصبح لها نفوذ سياسي كبير.

٣ ـ تأتي الحرب العالمية الثالثة والأخيرة بتصدي الصهيونية السياسية لزعماء المسلمين في العالم الإسلامي، وتشن حرباً عالمية ماحقة على الإسلام الذي يمثل القوة الدينية الأخيرة الباقية.

وتدل الأحداث الجارية على جدية الماسونيين في سعيهم لتحقيق هذا المخطط الإجرامي[1].

درجات الماسونية

كشف يوسف الحاج الماسوني في كتابه. «هيكل سليمان» درجات الماسونية

---

(١) أحجار على رقعة الشطرنج. وليام دي كار.

التي يتدرج فيها أتباعهم. فقد جعل لها مراتب درجات لا يصل إلى أعلاها إلا المخلص الذي يثبت تفانيه في خدمة أهدافها.

الدرجة الأولى: وتسمى الماسونية الرمزية الأولى أو العامة ويطلق على أعضاءها وصف «العميان» وهم لا يطلعون على حقائق الماسونية وخفاياها، وإنما عليهم طاعة الأوامر وتنفيذها، ودرجاتها ٣٣، ويترقى الماسوني غير اليهودي في سلم درجات هذه المرتبة، وقد يبلغ أعلاها. ولا يقبل العضو الجديد إلا بعد تزكية عضوين له وثبوت جدارته بعد التحريات السرية عنه كما يجري له اختبار نفسي يقبل بعده في حفل له طقوس خاصة يحضره أعضاء المحفل. ولا يتم ترقية الماسوني إلا بعد تجارب قاسية تثبت أهليته لتلقى أسرار الدرجة الجديدة التي يرتقى إليها، وله قسم خاص لا بد أن يؤديه أمام رئيسها على أن يتخذ من إخوانه الماسونيين أولياء له وأن يكتم أسرارها. ومن بين من حصلوا على الدرجة ٣٣ إيرل أوف ألكسندر، رئيس أركان حرب القوات البريطانية في الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الثانية.

المرتبة الثانية: تسمى الماسونية الملوكية، وهي تتمة للماسونية الرمزية، ولا ينالها إلا اليهود ومن أخلص في موالاتهم ممن تنكروا تماماً لأديانهم وأوطانهم وتجردوا لليهودية. وإعلان تقديسها وإعادة بناء الهيكل وامتلاك اليهود لفلسطين وجعلها وطنهم القومي. ويطلق على أعضائها اسم الرفاق (جمع رفيق) وممن يذكر عنهم وصولهم إلى هذه الدرجة العالية: تشرشل وبلفور وهاري ترومان، رئيس أميركا الذي سارع إلى الاعتراف بدولة إسرائيل عند إعلانها، وذكرت مجلة شيكاغو أفنجر إنه كان ماسونيا أعظم. ومنهم امبراطور أثيوبيا السابق هيلاسلاسي. ويرافق انتساب العضو إلى هذه المرتبة إجراء بعض الطقوس الخاصة.

المرتبة الثالثة: وتسمى الماسونية الكونية

وهي قمة الطبقات والدرجات الماسونية، أفرادها آحاد من اليهود، لهم نفوذ كبير على مستوى العالم ويسعون إلى إخضاع الملوك والرؤساء لقوة نفوذهم، وهم يسيطرون على كل المحافل الماسونية في العالم، وهم مصدر الأسرار وأصحاب

الخطط والتدبيرات، وعلى ضوء مخططاتهم يعمل سائر الماسونيين في العالم، وليس لهذه الطبقة إلا محفل واحد في نيويورك لا يعلم مقره إلا القليل. ويقال أن أعضاء هذه المرتبة وعددهم إثنا عشر عضواً، هم الذين صاغوا «بروتوكولات حكماء صهيونية». وفي محفل نيويورك قرر اليهود من أصحاب المليارات خراب روسيا القيصرية، وهذه صورة القرار: «إنفاق مليار دولار وتضحية مليون يهودي لإثارة الثورة في روسيا» وكان اليهود الخمسة الذين تبرعوا بالمال هم: إسحاق مورتيمور، وشمستر، وروب، وشيف، وليڤي.

حقائق عن الماسونية

تشير الأدلة إلى أن الماسونية كانت وراء قيام الثورة الفرنسية كما كانت وراء الثورة البلشفية، إلى جانب إلغاء الخلافة الإسلامية وعزل السلطان عبد الحميد آخر خليفة للمسلمين.

من تعاليم الماسونية ترك العقيدة أياً كانت غير اليهودية طبعاً ـ كما يترك المرء نعليه على الباب، فالماسونية ضد جميع الأديان ـ إلا اليهودية ولهذا يقولون:

«نحن الماسون لا يمكننا أن نقف عن الحرب بيننا وبين الأديان لأنه لا مناص من ظفرها أو ظفرنا، ولا بد من موتها أو موتنا».

«إننا إذا سمحنا لمسلم أو نصراني بالدخول إلى أحد هياكلنا فإنما ذلك قائم على شرط أن الداخل يتجرد من أضاليلة ويجمد خرافاته وأوهامه التي خدع بها في شبابه».

«لا يقبل المتدينون في المحافل الماسونية لأن الذي ينخرط في المحافل يجب أن يكون حراً والماسوني الحقيقي لا يكون متديناً».

إن الماركسية واللاقومية هما وليدتا الماسونية لأن مؤسسيها كارل ماركس وإنجلز هما من الماسونيين، ومن الدرجة الحادية والثلاثين فيها ومن أعضاء المحفل الإنجليزي، بل كانا من الذين أداروا الماسونية السرية، وبفضلها أصدر البيان

الشيوعي المشهور. وقد أعلنت المجلة الألمانية الماسونية (لاتونيا) فرحها واستبشارها بانتشار الإشتراكية في مقال لها بتاريخ ١٢ يوليو ١٨٩٤ قالت فيه:

«إن الماسونية قد وجدت في المبادىء الإشتراكية خير عون لها فلا بد من معاضدتها.

تملك الكثير من موارد الاقتصاد ووسائل الإنتاج في العالم.

لم يعرف في التاريخ منظمة أقوى تنظيماً ونفوذاً من الماسونية ومن ذلك وقوع الكثير من زعماء العالم تحت سيطرتهم حتى صاروا كالدمى في أيديهم خوفاً على مناصبهم وكراسيهم.

ومن ذلك انتشار محافلها الكثيرة في كل بقاع الأرض تقريباً حيث تستقطب هذه المحافل شخصيات هامة كثيرة.

ومن ذلك أنها تملك عصابات إرهابية منظمة لتنفيذ أعمالها الإجرامية لتصفية كل من يقف أمام أهدافها ومخططاتها عن قصد أو بغير قصد أو يحاول إفشاء أسرارها.

أقدم وجود للماسونية في العالم العربي تمثل في المحفل الذي أسس في القاهرة عام ١٧٩٨ بعد حملة نابليون، وكان اسمه محفل «إيزيس». ثم في سنة ١٨٣٨ تم تأسيس محفل آخر في القاهرة أيضاً، هو محفل ممفيس، بينما يؤكد شاهين مكاريوس وجورجي زيدان أن أقدم محفل ماسوني في مصر هو محفل الأهرام الذي تأسس عام ١٨٤٥.

وقد شهدت ستينيات القرن الماضي إنشاء محفلين آخرين تحت رعاية محفل الشرق الأعظم الفرنسي هما محفل «نهضة اليونان» الذي تأسس في الإسكندرية في ٩ نوفمبر ١٨٦٣، ومحفل النيل، الذي تمت الموافقة على دستوره الرمزي في ٢٣/ ٣/ ١٨٦٨ ثم تأسس بعد ذلك أول محفل مصري يتحدث أعضاؤه بالعربية وهو (محفل نور مصر).

ويفهم من تتبع تاريخ الماسونية في مصر أنها بدأت أجنبية اللغة، وكان أعضاؤها في غالبيتهم من الأجانب، وعندما تم تشكيل الهيئة الماسونية المصرية الجديدة: «على الطريقة الاسكتلندية باسم الشرق الأعظم الوطني المصري» سنة ١٨٧٦. والذي أصبحت المحافل المصرية جميعاً تابعة له، انتخب الإيطالي «سوليتوري زولا رئيساً له. وفي عام ١٨٨٧ تم انتخاب الخديوي توفيق باشا رئيساً لذلك المحفل.

ويبدو أن العصر الذهبي للماسونية في مصر وصل إلى ذروته في الربع الأخير من القرن الماضي عندما دخل في الماسونية بعض زعماء الإصلاح الذين اشتهروا في ذلك الوقت، ومنهم السيد جمال الدين الأفغاني، حيث نجد رسالة بعثها الأفغاني يطلب فيها قبوله عضواً في أحد المحافل وهو محفل كوكب الشرق الماسوني في مصر، وهذه الرسالة محفوظة مع أوراق جمال الدين الأفغاني، ورسائله في جناح خاص في مكتبة البرلمان الأوروبي، وقد نقل صورة زنكوغرافية لها اسماعيل تائين في كتابه دار النسيان والماسونية في إيران باللغة الفارسية.

وكان للماسونية في مصر مجلة تنشر أخبارها وتشيد بها، وهي مجلة اللطائف التي كان يصدرها شاهين مكاريوس، وهو لبناني من جنوب لبنان «مرجعيون» الذي انتمى إلى الماسونية في بيروت ١٨٧٤ ثم ارتقى إلى درجة أستاذ، وتم انتخابه كاتب سر للمحفل، ثم جاء إلى مصر مع زميليه يعقوب صرُّوف وفارس نمر، وأسهم في الحركة الماسونية فيها بنشاط كبير، وأصدر سنة ١٨٨٦ مجلة اللطائف ثم أنشأ عام ١٨٩١ محفل اللطائف الماسوني. وقد استمرت مجلة اللطائف في الصدور خمساً وعشرين سنة حتى توقفت عام ١٩١٠ إثر وفاته

وقد وضع شاهين مكاريوس عدة كتب عن الماسونية هي:

الأسرار الخفية في الجمعية الماسونية.

الآداب الماسونية.

الفضائل الماسونية.

تاريخ الماسونية.

ثم صدرت في مصر مجلة ماسونية أخرى هي مجلة «الأيام» وكان صاحبها حسين شفيق المصري الذي يرأس تحرير مجلتي «الفكاهة» و «الاثنين» في نفس الوقت.

وقد انتمى إلى الماسونية في مصر كثير من الأمراء والباشوات ورجال الدين، وكان منهم سعد زغلول وقد ظلت الماسونية في مصر تتمتع بمكانة محترمة حتى عام ١٩٦٤ عندما أصدرت الحكومة المصرية أمرها بإغلاق جميع المحافل الماسونية في مصر، فتم وضع النادي الماسوني الإنجليزي في شارع طوسون تحت الحراسة وعند الجرد اكتشف أن إدارة النادي قد هرّبت إلى لندن جميع المستندات والسجلات منذ عام ١٩٥٢ وعثر على لوحات وأعلام وأثاث ومطبوعات عليها نجمة داود وقد أثار هذا الحدث ضجة كبيرة في مصر آنذاك.

وفي ٣ يونيو ١٩٦٤ نشرت مجلة «آخر ساعة» تحقيقاً عن الماسونية وذكرت فيه الأسباب التي حملت الحكومة المصرية على غلق محافلها.

لم تكن نظرة أهل الشام والعراق للماسونية مثلما هو الحال في مصر، بل إن الماسونية كانت تعتبر بمثابة تهمة لأي شخص يُنعت بها، وكانت من بين ألفاظ الشتائم والسباب ويشير شاهين مكاريوس في كتابه «الأسرار الخفية في الجمعية الماسونية» بقوله:

وقد راجت هذه التهم التي رُميت بها الماسونية رواجاً عظيماً في كل الممالك في بادىء أمرها وانتشارها وكذلك الإشاعات عنها إلى درجة سخر العقلاء منها فصار اسم الماسونية موضوع الشبهة ولا سيما في الشرق «ويستطرد قائلاً: «فهؤلاء وأمثالهم جعلوا البسطاء يتوهمون الشر في الماسونية ولذلك نسمعهم يشتمون ويعيرون بقولهم يابن الكافر يابن الفرمسوني حتى أن أحدهم قال مرة شاكياً من أبناء ملته ـ لو كانت مجوسياً أو ماسونيا ما عاملوني هذه المعاملة السيئة».

موقف المسيحية من الماسونية :

شن بابوات الفاتيكان الحرب على الماسونية منذ عام ١٧٣٨ على عهد البابا كليمنت الثاني عشر الذي أصدر أول مرسوم يتعلق بالماسونية ذكر بعد مقدمة طويلة .


ومن بعد أخذ رأي إخوتنا الكرادلة ، ولعلمنا التام، وحكمنا بأن هذه المنظمات المعروفة باسم الـ Free Masson يجب رذلها ونفيها، وبناءً عليه نرذلها ونشجبها .

وقد ظل موقف الفاتيكان ثابتاً إزاء الماسونية حتى عام ١٩٦٥ م عندما أصدر البابا بولس السادس أمراً يعطي للكهنة الحق بإلغاء كل قرار كنسى سابق، وقام بنفسه باستقبال مجموعة من أعضاء نادي الروتاري عام ١٩٦٥ م ليباركهم ناقضاً بذلك التعاليم البابوية التي تنص على أن «المسيحي الذي ينضم لنادي الروتاري يتعرض إيمانه للشبهة» .

موقف الإسلام

أصدر المجمع الفقهي بمكة المكرمة في دورته الأولى في العاشر من رمضان عام ١٣٩٨ هـ الموافق ١٥/ ٧/ ١٩٧٨ بياناً عالمياً أكد فيه بعد دراسة وافية أن مبادىء حركات الماسونية والليونز والروتاري تتناقض مع مبادىء وقواعد الإسلام. وأفتى بتكفير كل من يشترك في هذه الأندية بشرط علمه بحقيقتها وأهدافها ومخالفتها للإسلام مع اعتقاده بصحة معتقداتها والعمل بها ولها .

الفهرس



هـذا الكتـاب

تشترك أغلب الشعوب القديمة في إعتقادها في آلهة غير مرئية، عظيمة القوة أبدية خيرة، ولما كان الإنسان في حاجة إلى معونتها الدائمة في مجريات حياته اليومية فلا بد له من كسب رضائها بالتقرب إليها وإقامة الطقوس الخاصة بها وتقديم القرابين لها. أي أن ذلك كان محاولة من الإنسان للتوافق مع الظروف الطبيعية المحيطة به، وتجنيدها لخدمة أغراضه الحياتية.

ولما كانت أغلب هذه الديانات تفتقر إلى فكرة واضحة عن العالم الآخر، لذا كان من الطبيعي أن تظهر ديانات أخرى تعد من يعتنقها بحياة خالدة سعيدة بعد الموت، وكانت هذه الديانات مغلقة على أصحابها، ولذا سميت بديانات الأسرار، وتميزت بطقوس غريبة غامضة ارتبطت في مجملها بالجنس كرمز لإستمرارية الحياة.

هلم عزيزي القارىء نلقي نظرة عن قرب على بعض هذه الديانات مثل الأسرار الإليوسية الغامضة والميثرائية والأورفية والساموتراكية والأسرار الماسونية، وحتى المسيحية في بداياتها كانت أحياناً ما تعامل على أنها من ديانات الأسرار.

الناشر